
الدكتور طريف الخالدي

دار الطليعة ـ بيروت

بحث في مفهوم التاريخ ومنهجه



152

بحث في مفهوم التاريخ ومنهجه

الدكتور طريف الخالدي

أستاذ مشارك في التاريخ
الجامعة الاميركية في بيروت

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

بيروت ـ لبنان
ص. ب ١١١٨١٣
تلفون ٣١٤٦٥٩
٣٠٩٤٧٠

الطبعة الاولى

تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٢

المحتويات

ـ توطئة .	٥
ـ الباب الأول : تعريفات عامة للتاريخ .	٧
ـ الباب الثاني : التاريخ وأصنافه المختلفة في الماضي .	٢٤
ـ الباب الثالث : التاريخ وأصنافه المختلفة في الحاضر .	٤٠
ـ الباب الرابع : المدارس التاريخية المعاصرة .	٥٥
ـ الباب الخامس : عقلية المؤرخ .	٦٨
ـ الباب السادس : اختيار موضوع الدراسة وتصميم البحث .	٨٣

اهداء

الى الارواح البررة

التي سمت شوقاً

الى خــــالقـــها

لكي يحيــا لبنــان

وتحيــا فلسطــين

ط . خ

توطئة

تفضّلت ادارة « معهد الدراسات الاسلامية » التابع لجمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت فدعتني الى القاء محاضرات حول التاريخ امام طلاب الدراسات العليا فاتاحت لي فرصة تدوين بعض الافكار ، فلادارة المعهد ولمديره الصديق الدكتور هشام نشابه شكري العميق . أما الطلاب فقد كانوا على افضل ما يتمناه استاذ اذ كانت المحاضرات اشبه بالحلقات الدراسية منذها بالدروس المنتظمة وكان لاسئلتهم وتعليقاتهم اكبر الاثر في توجيه الكلام وتنقيته من الغموض .

وبعد ، فما الحاجة الى كتاب آخر عن التاريخ ؟ أليس الموجود فائضا عن المطلوب ؟ هدفي ان اقدم تعريفا للتاريخ يجمع بين النظرية والعمل لا الاحاطة بكل ما يتصل بالتاريخ من علوم ومسائل . وقد تبيّن لي ، ضمن هذا الهدف المحدود ، ان حقل التاريخ النظري (او فلسفة التاريخ) ليس في الواقع مكتظّا ، لا في الغرب ولا في وطننا العربي ، بالقدر الذي يبدو عليه . كما تبين لي ايضا ان هنالك بعض الامور النظرية التي قد يساهم المؤرخ العربي بالذات في جلاء غموضها من خلال ممارسته لكتابة التاريخ العربي ، ومنها مثلا لا حصرا تاريخ الحضارات وتاريخ الفكر ومشكلة التراث .

وقد سعيت قدر المستطاع ان لا اترك اسئلة كثيرة عالقة وبدون جواب فاذا كان رأيي واضحا في بعض الاماكن طرحته كما تيسّر لي واذا كان رأيي لا يزال غامضا حاولت الاشارة الى ذلك تاركا للقارىء في كافة الاحوال سبيل الوصول الى استنتاجاته الفردية وراجيا ان يكون العرض قد ساهم في ذلك المسعى . وقد ارتأيت الابقاء على نبرة المحاضرات ولم اعد صياغتها بلغة الكتاب الادبي لانني وجدت أن هذه النبرة لربما تحافظ على بعض الحيوية في موضوع قد يراه البعض جافا نائيا غامضا . كما استقيت معظم الامثلة الواردة في النص من التاريخ العربي الاسلامي فهو التاريخ الذي اعرفه اكثر من غيره وهو بالطبع التاريخ المألوف لدى القارىء العربي .

بيروت ، ١٤/ ١١/ ١٩٨٢ — طريف الخالدي

تعريفات عامة للتاريخ

التاريخ والتأريخ كلمتان يلفهما الغموض في لغات عديدة ، بما في ذلك اللغة العربية . ومصدر هذا الغموض واحد في جميع الحالات : اذ ان لفظة « التاريخ » تدل على العلم وعلى مادة العلم في آن واحد وهذا لا ينطبق لاول وهلة على العلوم الاخرى فنحن نميّز مثلا وبوضوح بين الاقتصاد وعلم الاقتصاد ، بين التجارة وعلم التجارة ، بين المجتمع وعلم الاجتماع ، بين الادب وعلم الادب ، بين الطبيعة وعلم الطبيعة الخ .. لكن لفظة التاريخ تعني حوادث الماضي كما تعني ايضا العلم بهذه الحوادث . ولمنع الالتباس عمدت بعض اللغات الى التمييز بين هاتين اللفظتين فاطلقت العربية مثلا لفظة التأريخ على العلم بالحوادث حتى ينفرد العلم عن مادته . ومع ذلك فنحن لا نزال نقول التاريخ عندما نعني التأريخ والعكس . ولكن هل لهذا الالتباس مغزى اعمق من المغزى القاموسي او اللفظي فحسب ؟ بمعنى آخر ، هل التاريخ حقل من حقول المعرفة التي يختلط فيها العالم مع المعلوم ؟ هل نحن هنا امام مشكلة فلسفية ام مشكلة لفظية تحل نفسها بالاصطلاح ؟

اذا وجدنا بالفعل ان التاريخ ينفرد عن سائر العلوم الاخرى بانه يدل على العالم والمعلوم معا فان مثل هذا الانفراد يتطلب منا بعض التمعن والنظر . فنحن قد نرى لاول وهلة ان هذا الخلط يجرّ في اذياله الخلط بين الذاتي والموضوعي ــ وهذا نجده يخالف ابسط قواعد

البحث العلمي فالبحث العلمي يتطلب كما نعلم التجرّد . لكي نفهم الحقيقة ، يجب ان نضع بيننا وبينها مسافة يحددها العقل فقط ، لا الشعور ولا العواطف ولا الاحاسيس . اما اذا خلطنا بين العالم والمعلوم فقد اضعنا العلم نهائيا .

ولنرجع الى الوراء قليلا لعلنا نلقي بعض الاضواء على هذه المشكلة. اذا رجعنا الى الفلسفة اليونانية ، واخترناها كنقطة البداية في بحثنا هذا ، خصوصا لما كان لها من التأثير على الفلسفة العربية الاسلامية ، نجد في هذه الفلسفة اليونانية اول تقسيم شامل لمراتب العلوم . وبدون الخوض في التفاصيل ، يمكن ايجاز آراء الفلاسفة اليونانيين في العلوم المختلفة ومراتبها على الوجه التالي : كلما اقترب علم من العلوم الى الثبات وعدم التبدل كلما ازداد هذا العلم حقيقة . اهم خاصية من خواص الحقيقة هي انها ثابتة لا تتغير . من هنا نجد الاحترام الزائد عند افلاطون مثلا للرياضيات ، اي لسنن وقوانين ونظريات لا تتغير . فالرياضيات عنده هي مفتاح الحقيقة ، هي المفتاح الذي يفتح للانسان باب عالم المُثُل . أما التاريخ المسكين فإن أهم خاصة من خواصه هي التغيّر . التاريخ نهر متواصل من المياه الجارية ، سلسلة من الحوادث تمر أمام أعيننا : باختصار ، التاريخ هو الزمن والزمن هو التبدّل والتغيّر . لذا ، ففي الفلسفة اليونانية نجد أن التاريخ يحتل مرتبة وضيعة بين العلوم إذ كيف يمكن لنا أن نجعل من التبدل والتغيّر علما ؟

هذا الانتقاد الاساسي الذي وجهه فلاسفة اليونان الى التاريخ لا يزال بشكل او بآخر يشغل بالنا في يومنا الحاضر . وحتى لو لم يتخذ نقد التاريخ شكلا فلسفيا ، فيبدو لنا في العديد من الاحوال ان هناك شكوكاً مبدئية ، فطرية ، غريزية ، تساور الانسان العادي في كل زمان ومكان حيال التاريخ والحقيقة التاريخية ، فلا يخلو عصر من العصور من اتهامات تتهم التاريخ بالكذب والاختلاق والخرافات والاساطير .

وفي زماننا الحاضر يتهم التاريخ بأنه لا يعدو كونه دعاية لفرد أو أمة او مبدأ . قال لي احد الزملاء قبل بضعة ايام انه سمع احد رجال السياسة العرب يقول : « ان المؤرخين يتجاسرون على الله تعالى فالله خلق الكون وتاريخه مرة واحدة اما المؤرخ فانه يتلاعب بهذا الخلق كما يشاء » . ونشكر الله ان هذا السياسي كان يمزح والا لوجدنا ابراج المؤرخين العاجية تتحطم من حولهم . ولكن هذا القول يخفي من ورائه ملاحظة نفسية هامة .

لنأخذ مثلا على هذه الشكوك الغريزية الرجل العادي . فالرجل العادي يكتنز في ذهنه من المعلومات عن الماضي ما يفوق في كميته اية معلومات عن اي موضوع آخر ، فهو يتذكر ليس فقط امورا عديدة عن حياته الشخصية بل امورا عديدة تتعلق بالحياة العامة . واذا عرفنا التاريخ جدلا بانه الماضي او العلم بالماضي نرى ان كل انسان هو مؤرخ بالقوة ، لا بل انه كثيرا ما يعرف عن التاريخ كمّا اضعاف ما يعرفه عن موضوع اختصاصه بالذات . واذا جاز لغرامشي ان يقول ان كل انسان فيلسوف جاز لنا أكثر ان نقول كل انسان مؤرخ . لكن عندما يمعن الانسان النظر في هذه المعلومات ، اي اذا خطر على باله ان يستعرض ذكرياته ، فانه يجد ان الواقع كثيرا ما تشوبه شوائب النسيان . فيبدو وكأن الزمن هو الدجال الاكبر . هل حدث هذا الامر البارحة ام قبل البارحة ؟ هل حدث الساعة السادسة والنصف ام العاشرة ؟ هل حدث الامر في البيت ام في المكتب ؟ في العام ١٩٥٢ او ١٩٦٢ ؟ احدى روايات البير كامو تبدأ : « توفيت والدتي اليوم ، او لربما البارحة » . اذا يبدو اننا في الزمن ولكنه لا يلتفت الينا ولا يحفل بنا . نحن منه وله وفيه واليه وعنه وبه . التاريخ يجرنا بكافة حروف الجر . نخرج منه ونرجع اليه ، ندخل فيه ونطلع منه . التاريخ سجن الانسان الاكبر . ولانه سجن فانه يعيق الانسان عن النظر الى الواقع بتجرد وموضوعية ، فهو يخلط بين افق الانسان الفرد وافق محيطه ،

يخلط بين الذات والموضوع ، بين « الانا » وغير « الانا » ، بين العالم والمعلوم ، بين النسبي والمطلق .

وهذه الاتهامات التي توجه للتاريخ وهذه الشكوك التي تساور الانسان العادي حول موضوعية التاريخ وحقيقته وكأنها شكوك غرست في نفسه غرسا ، تزداد بل وتتأجج عندما يطلع الانسان العادي على اراء المؤرخين انفسهم . فالعديدون منهم مثلاً يعترفون ان علمهم او صناعتهم لا يثبت على رأي ولا على قانون . يقول المؤرخ الهولندي المعاصر بيتر خيل : « التاريخ جدال لا ينتهي » . وهذا رأي يأخذ به معظم المؤرخين في يومنا هذا على ما اعتقد وبشكل او بآخر ، على الاقل اللبراليون منهم . ماذا يقصد بهذا التعريف ؟ انه يرمي الى ابراز ما يرى انه من اهم واجبات المؤرخ وهو النظر واعادة النظر في المادة التاريخية على ضوء آخر ما استجد من العلوم في كل جيل من الاجيال . ولكن اذا صح هذا الرأي فهو لا يزيد الانسان العادي إلّا تشككا في مغزى التاريخ ومعناه وفائدته . اذ يرى هذا الانسان ان المؤرخين ما هم الا فصيلة من العنز المتناطح ، يناقضون بعضهم بعضا من جيل الى اخر ، يتخبطون في علمهم تماما كما يتخبط التاريخ نفسه في دهاليز النسيان . اما اصحاب الشهرة والامانة من بينهم فهم على قول ابن خلدون « قليلون لا يكادون يجاوزون عدد الانامل » . وابن خلدون هو إمام التاريخ العربي الاسلامي في صدر الاسلام بلا منازع .

وكأن كل هذه التحديات والاتهامات المصوبة نحو التاريخ لا تكفي فاذا بنا في قرننا هذا نجد التاريخ يواجه لربما اشد التحديات التي مرت عليه في تاريخه الطويل (اذا جاز التعبير) وهي التحديات الصادرة عن العلوم الاجتماعية وخصوصا عن علميْ الانسان (انتروبولوجيا) والمجتمع (سوسيولوجيا) . هذا التحدي يمكن ان نوجزه بالمثل العربي القديم « الناس بازمانهم اشبه منهم بابائهم » .

ماذا يعني هذا المثل لو اردنا ان نطبقه على الواقع ؟ يعني ان المجتمع العربي المعاصر (في العراق مثلا) اشبه بالمجتمع اليوناني المعاصر منه بالمجتمع العباسي والعكس طبعا صحيح اي ان المجتمع اليوناني المعاصر اشبه بالمجتمع العربي المعاصر منه بالمجتمع اليوناني تحت سيطرة بيزنطه . لنأخذ انماط الحياة : الملابس ، المنازل ، المؤسسات ، الحياة السياسية ، الوظائف ، الملاهي العامة ، الوسائل الاعلامية الخ ... ألسنا اقرب الى اليونان اليوم منا الى بغداد في زمن هارون الرشيد ، (ناهيك عن زمن هولاكو) واكاد اقول الى اليابان شرقا واميركا غربا ايضا ! فاذا اردنا ان نفهم المجتمع العربي المعاصر ، لا حاجة لنا ان نرجع الى الوراء ، الى الماضي ، الى التاريخ ، بل نتجه الى المجتمعات المتعاصرة نفهمها بالنسبة الى بعضها البعض والى تفاعلاتها ومبادلاتها الحالية .

ونتج عن ذلك ظهور بعض المدارس في الفكر الاجتماعي في القرن العشرين تطرح كلها نظريات في المعرفة قد نسميها لاتاريخية او معادية صراحة للتاريخ . ولا ريب ان هذه النظريات (البنيوية او الوظيفية او السلوكية) قد فاضت على المقولات والنظريات الاخرى في المجتمعات الحديثة فنحن نسمع باستمرار مقولة « لِننسَ الماضي » . وكثيرا ما يؤدي ذلك الى تجاهل للتاريخ وازدراء له نلمسه في الدور الهزيل الذي يلعبه التاريخ في البرامج الدراسية وكيفية تعليمه على المستوى الثانوي في مدارسنا . فمادة التاريخ في مدارسنا هي من أكثر المواد هامشية وسماجة ومبعثا للسأم عند الطالب . فالتاريخ في أعين الطلبة ما هو الا سلسلة من المعارك والدول المتعاقبة والرجال « العظماء » والطالب عليه أن يحفظ هذه المعلومات عن ظهر قلب ومن ثم يكتبها أو يلقيها تماماً كما تعلمها . وإذا أسعفته الذاكرة وكان من المقلدين والحفظة ، نجا من براثن هذه المادة التي سرعان ما يضعها جانباً لينصرف الى المواد التي تبدو له ، وبحق ، أكثر علمية وأسهل تطبيقاً وأعم نفعاً .

اما في المقولات السياسية العربية الرائجة في يومنا هذا فان التاريخ لفظة كثيرا ما نراها تستعمل وكأنها مرادفة لله او للحق او للعدالة ، او لقوة عظمى من قوى الخير . فنحن نقرأونسمع باستمرار عبارات كالاتية : « ان التاريخ معنا » او « ان مجرى التاريخ سوف يحقق لنا النصر » ونسمع الكثير عن « حتمية التاريخ » وعن أناس يقفون « في مجرى التاريخ » وآخرين يقفون « ضد التاريخ » والى ما هنالك من العبارات الانشائية او الغيبية التي لا تزيدنا الا تشككا في معنى التاريخ وقيمته . وفي مثل هذا الاستعمال للتاريخ كمرادف للحق او لله خطر سياسي واضح اذ انه قد يعزز فينا نوعا من انواع الاتكالية فاذا كان التاريخ معنا فهذا يعني اننا سوف ننتصر حتما وسوف نتغلب حتما على مشاكلنا ، مهما طال الامد .

هذه باختصار هي بعض الاتهامات التي يواجهها التاريخ في ايامنا هذه ، وهي كما رأينا اعلاه اتهامات نظرية وواقعية ، اي انها ليست نظريات علمية فحسب بل لها امتدادات واشكالات على صعيد المجتمع ككل . وقد رأيت من المفيد ان نكون على بينة من امرنا قبل ان نبدأ بتعريف التاريخ والدفاع عنه ، اذا جاز التعبير . ويبدو لي ان في هذه الاتهامات الكثير من الصحة . وقد اشرت فيما سبق الى ان العداء للتاريخ او سوء استعماله امر قديم قدم التاريخ نفسه . ولا ريب ان مثل هذه الاتهامات او اشباهها سوف تتكرر في المستقبل ، بل وقد تزداد . فالعلوم الاخرى ، خصوصا العلوم الطبيعية تتفجر بالنظريات الجديدة يوما بعد يوم اما التأريخ فلعله من ابطأ العلوم تقدما على المستوى النظري . ولا شك عندي ان بعض هذه الاتهامات الموجهة للتاريخ وللتأريخ معا لن تجد جوابا مقنعا تماما ولا دفاعا حاسما لدينا بل ولربما قررنا في النهاية انه من الافضل ان نتعايش مع التأريخ بالرغم من مساوئه العديدة وهفواته وثغراته ، من ان نقذف به خارجا ونلتفت فقط الى زماننا الحاضر . وهذا طبعا هو دفاع الشخص المستميت .

لكن لا بد لنا من البحث عن دفاع اكثر فائدة وعقلانية حتى ولو كان هذا الدفاع نوعا من انواع التمرين العقلي فحسب . وقبل أن أبدأ اود ان اوضح أن الدفاع عن «التاريخ»، كما قد نسميه ، يجرنا الى الغوص في امور فلسفية لا اود ان تستحوذ على اهتمامنا الكامل . فالتركيز في هذه المحاضرات كما سيتّضح هو على صنعة التأريخ ، لا على التأريخ كعلم . كذلك اذا لم نفلح الان في الرد على كافة الاتهامات المبينة فيما سبق فقد نعود اليها فيما بعد ، في البابين الثاني والثالث .

دعونا نتجه الآن الى « الدفاع » .

في الأسبوع الماضي ، وعندما كنت أحاول أن أبيّن ما يكتنف التاريخ من شكوك في حقيقته وفي كتابته قال أحدكم أن مثل هذه الشكوك تكتنف أيضا العلوم الطبيعية . ولربما كان هذا الرأي مدخلاً مفيداً للدفاع عن التاريخ . دعونا نتأمل هذا الرأي ونفصّل علاقته بالتاريخ .

قلت فيما سبق أن العلم الموضوعي هو العلم الذي يفصل بين العالم والمعلوم ، فيضع للمعلوم قوانين ثابتة لا علاقة لها بالعالم . من هنا ولد التجرّد المطلق الذي يرى الكثيرون منا أن العلوم الطبيعية قد وصلت اليه . ولكن هل ينطبق هذا القول بالفعل على العلوم الطبيعية ؟ لنأخذ مثلاً على ذلك علم الفيزياء وهو العلم الذي أحرز أكبر الانتصارات في قرننا هذا وأذهل العالم باختراعاته ونظرياته . هل يؤمن علماء الفيزياء في يومنا هذا بالتجرد المطلق ؟ الجواب ، باختصار هو كلا . العالم الفيزيائي ورنر هايزنبرغ معروف لدى قطاعات واسعة من المثقفين في العالم كأحد أهم علماء الفيزياء في هذا القرن . ولربما ترجع أهميته الى أنه كان أحد العلماء الذين نجحوا في إيصال استنتاجاتهم العلمية الى جمهور أوسع بكثير من حفنة زملائهم . فكتابه بعنوان « الفيزياء والفلسفة » يقرأه المثقف العادي ويجد فيه عرضاً شيقاً ومفهوماً « لمبدأ الريبة » (Uncertainty principle) ، ذلك المبدأ الذي

اقترن باسم ورنر هايزنبرغ . ما هو مبدأ الريبة ؟ مبدأ الريبة يقول أن أية مراقبة علمية لأية عملية طبيعية أو نظام طبيعي تـؤدي بالضـرورة الى زعزعة هذه العملية أو هذا النظام . بمعنى آخر ، يقول هـايزنبـرغ أنه من المستحيل أن نفصل فصلاً مـطلقاً بـين المراقب والمـراقب ، بين العالم والمعلوم . أو ، إذا أردنا توضيحاً إضافياً ، نقول أن مبدأ الريبة يقضي بوجود حد معين ومعروف للدقة أو للصحـة العلمية لا يمكن لهـا أن تتجاوزه .

لا أرى من المفيد لنا أن نغوص أعمق من هذا الحد في مسألة العلاقة بين العلوم بعضها ببعض وفي مراتبها على ميزان الحقيقة ولا أجد أيضاً أنه من المفيد لنا أن ندخل في جدال حول المطلق والنسبي . ولكن لنا أن نستخلص على الأقل من مبدأ الريبة أن الريبة ليست محصورة بالتأريخ بل يبدو أنها تلف بالضباب قمماً من العلوم الأخرى طالما أنحنينا أمامها إجلالاً وانبهاراً . ويذكرنا هذا الموقف بما جاء على لسان ابن خلدون في صدد هجومه على العلوم الالهية (أي الميتافيزيقية) ، وهي قمة العلوم عند الاغريق ، عندما يقول : « وإذا كنا إنما نحصل بعد التعب والنصب على الظن فقط فيكفينا الظن الذي كان أولاً » . ونحن بدورنا نقول أنه إذا كنا إنما نحصل على الريبة فقط ، فتكفينا الريبة التي كانت أولاً . إذاً نجد التأريخ نفسه يتأرجح مع باقي العلوم ، ويرقص مع باقي العلوم على أنغام موسيقى الزمن .

ولكن لو افترضنا جدلاً أننا قد دفعنا عن التاريخ تهمة الريبة العلمية فكيف ندفع عنه تهمة وجوده المبعثر في النفس البشرية ؟ في الذاكرة ؟ لربما كـان الدفاع الأجـدى حتى ولو لم يكن دفاعـاً يتعرض لصلب الموضوع ، هو أن نقول أننا نجد في كل جيل من الأجيـال بعض العقول النيرة ، من المؤرخين ومن غـير المؤرخـين تطمـح في الذهاب الى أبعد من جمع وتـرتيب وتنسيق هذا التـاريخ المبعثـر أي تتطلع الى مـا وراء التـاريخ . هنـاك دائماً بعض المفكـرين الذين يبحثون عن جـوهر

التاريخ ، بالمعنى الأرسطوطاليسي للكلمة،عن حقيقته وماهيته . وبكلام آخر ، فإن فلاسفة التاريخ يغذون التاريخ بالعمق والشمول ويسألون المؤرخ باستمرار : لماذا تكتب التاريخ ؟ وما معنى التاريخ ؟ وكثيراً ما يجاوبون على هذا السؤال بالنيابة عن المؤرخ . ونكتفي الآن بالقول أنه من الملاحظ أن التأريخ يزدهر كلما ازدهرت فلسفة التاريخ في عصر من العصور . بمعنى آخر ، صحيح أن التاريخ مشوش وغامض في الذاكرة البشرية لكن البحث عن الحقيقة التاريخية عند المؤرخين والفلاسفة لم يتوقف في يوم من الأيام . لذا وقبل أن ننتهي من هذا الموضوع أود أن أنوّه أنني عندما استعمل كلمة تاريخ (بدون همزة) أعني بها التاريخ والتأريخ معاً أما عندما استعمل كلمة تأريخ المهموزة فأعني بها كتابة التاريخ حصراً .

لندع هذه الأمور جانباً الآن ولندخل في التعريفات الأساسية . لقد افترضنا حتى هذه اللحظة أن التأريخ هو العلم بالماضي وبحثنا في كونه علماً ولكننا لم نبحث بعد في معنى الماضي . فعندما نقول « العلم بالماضي » هل نعني كل الماضي ؟ يستحيل بداهة أن نسترجع كل الماضي . إذا لا بد لنا من الاكتفاء ببعضه . وإذا كتب علينا أن نكتفي ببعضه ، فما هو جوهر ما تبقى ؟ وبما أن طموحاتنا هنا طموحات عملية في المكان الأول ، ما فائدته وما مغزاه ؟

لا حاجة لي هنا للاسترسال في تعريف التاريخ فهناك العديد من الكتب التي تضم بين دفاتها مقتطفات من أقوال المؤرخين في شتى الأزمنة والحضارات حول هذا الموضوع لكن لا بد لنا من الاشارة الى منعطف رئيسي من منعطفات تاريخ التأريخ البشري ، من تاريخ تعريف التأريخ إذا شئتم . هذا المنعطف هو المنعطف الديني ، وبشكل أخص الأديان التوحيدية الثلاثة : اليهودية والمسيحية والاسلام . لقد خلق دين التوحيد (أو الدين الحنيف إذا شئتم) ثورة في تعريف التاريخ .

فقد ربطت هذه الأديان الثلاثة ربطاً لا انفصام له بين الله والتاريخ إذ بشّرت جميعها بشكل أو بآخر أن التاريخ هو الله في التاريخ . جاءت هذه الأديان لتنفي عن التاريخ صبغة المفاجأة والحظ والغموض والتبعثر والتي كثيراً ما نجدها عند مؤرخي اليونان والرومان مثلاً ولتعطيه بداية ونهاية وتمنحه هدفاً يسير اليه ، جاءت لتنفي الحظ وتثبت العناية الالهية والتدبير الالهي كما يقول القديس اغسطينوس . وتبعاً لهذا التعريف الديني فالماضي في حقيقته سجلّ لما خلقه الله وما سوف يخلقه الى يوم الدين . « وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر ... قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم الى يوم القيامة » .

وإذا تأملنا هذا التعريف قليلاً (التاريخ هو الله في التاريخ) نجد أن التراث الديني قد منح التأريخ مكانة سامية جداً بين العلوم . وبالرغم من أن هذا التعريف للتاريخ لا يضع له حدوداً ولا خططاً عملية لكنه يمنح المؤرخ إيماناً عميقاً بأهمية الماضي ، يمنحه ثقة في النفس كثيراً ما تؤدي الى القول بأن التاريخ أصل كافة العلوم ومنبتها ومادتها . وشاع مثل هذا التعريف عند المؤرخين في صدر الاسلام فنجد المسعودي (القرن ٤ / ١٠) مثلاً يقول : « إذ كان كل علم فمن الأخبار يستخرج وكل حكمة منها تستنبط والفقه منها يستثار والفصاحة منها تستفاد وأصحاب القياس عليها يبنون وأهل المقالات بها يحتجون »[(١)] . ويصف العامري (القرن ٤ / ١٠) ، وهو ليس مؤرخاً ، علم الأخبار فيقول : « وهو علم يتفنن في الأساليب ويتشعب في الأبواب بل ما من فن من فنون العلوم الا ويوجد فيه أخبار منقولة اما من الكتب المنزلة أو من الرسل والائمة أو من الحكماء المتقدمين ...

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب . تحقيق بلّا . (بيروت : الجامعة اللبنانية ، ١٩٦٦) ، الفقرة ٩٨٩ .

فهو إذن مادة لها كلها »[1] وهذه الآراء في أهمية التاريخ كأساس للعلوم كافة والتي نجدها عند بعض المؤرخين في العصور الاسلامية الوسطى تقترب كثيراً من « التاريخانية » وهي مدرسة عصرية في التأريخ سوف نأتي على ذكرها في الباب الثالث .

نستنتج مما تقدم أن الدين هو الذي أضفى على الماضي هذه الهالة الالهية من التقدير (فنحن نرى أن المؤمنين في العادة هم من أشد أنصار التاريخ) ؛ الدين هو الذي أكسب التاريخ جوهراً وحقيقة وعبرة . ففتح الدين للتاريخ أبواباً واسعة وطرح موضوع جوهر التاريخ كموضوع أساسي في كافة الحضارات التي تأثرت بالأديان السماوية الثلاثة . وعلى مر العصور تغيّرت تعريفات جوهر التاريخ لكن البحث عن الجوهر لم يهدأ . جوهر التاريخ هو الروح عند هيغل ، هو الصراع بين مدينة الله ومدينة الانسان عند القديس أغسطينوس ، هو الطبقة عند ماركس ، هو العمران عند ابن خلدون ، هو الصراع بين الرسل والملوك عند الطبري . الحضارات الدينية إذا هي أول من حاول أن يعرّف الماضي بالبحث عن جوهره ، بالبحث عن عبرته . وفي التأريخ الاسلامي الوسيط على وجه الخصوص كان للفظة « العبرة » التي ترد مراراً في القرآن الكريم تأثير فكري بالغ على تطور الفكر التاريخي ، إذ نجد العديد من المؤرخين ممن لهم اهتمامات فلسفية يحاولون استخلاص العبرة من الماضي ، أكانت هذه العبرة هي العدل كما نجدها عند المسعودي أم كانت العبرة تجارب الأمم السياسية كما نجدها عند مسكويه (القرن ٥ / ١١) ، أم هي علم العمران كما ترد عند ابن خلدون .

لكن البحث عن جوهر الماضي ومحوره هو كما رأينا أمر تطمح

---

(١) العامري ، الاعلام بمناقب الاسلام . تحقيق غراب . (القاهرة : دار الكاتب العربي ، ١٩٦٧) ، ص ص ١١١ ـ ١١٢ .

اليه قلة فقط من المؤرخين والفلاسفة . ولا جدال أن معظم المؤرخين في يومنا هذا لا يهتمون بالخروج الى ما وراء التاريخ ولا يلتفتون الى عبره ومعانيه بقدر ما يصرفون اهتمامهم نحو تجميع وترتيب ما قد يصطادونه من المعلومات عن الماضي ، قانعين بهذا القدر من العلم وتاركين لقلة من زملائهم ومن الفلاسفة مهمة استنباط العبر والحكم والقوانين والجوهر . إذا لنضع الجوهر جانباً ولنقدم على الماضي ونرى ماذا يعني هذا الماضي بالنسبة الى المؤرخ العادي . قلنا قبل قليل أن من المستحيل على المؤرخ أن يستعيد كافة ما مضى وعليه أن يقنع تبعاً لذلك ببعض ما مضى . كيف نعرّف هذا البعض ؟ وإذا سلّمنا أن الماضي لا يسترد كلياً فما هي المعايير التي تستخدم لانتخاب ما تبقى منه ؟ ما هو تعريف الحدث التاريخي ؟

قد نقول رداً على هذا السؤال أن الحدث التاريخي هو الحدث الهام ولكن هذا الرد يلزمنا أن نعرف معنى الحدث الهام . وقد نقول أن الحدث الهام هو الحدث الذي يؤثر على حياة العدد الأكبر من البشر لكننا نصطدم بالواقع عندما نجد، وهذا ما نجده كثيراً في عصرنا الحاضر، أن حياة أعداد كبيرة من البشر تقع تحت تأثير حفنة قليلة من الناس قد نسميهم أصحاب النفوذ ، سياسياً كان هذا النفوذ أم اقتصادياً أم عسكرياً أم فكرياً . لا اعتبار إذا في العدد . وقد يقال أن الأحداث التاريخية هي الأحداث المميزة ، الأحداث الدراماتيكية ؛ التاريخ هو ما نطالعه على الصفحة الأولى من الجريدة اليومية . لكن هذا القول أيضا مردود فنحن نعرف بالتجربة أن الفرق بين الأحداث المميزة أو الدرامية والأحداث غير الدرامية كثيراً ما يتعلق بسرعة الحدث ووتيرته لا بأهميته على المدى البعيد ، فربّ خبر مغمور على الصفحة الثالثة يصبح مع الأيام تياراً جارفاً يسيطر على الصفحات الأولى . وقد نقول أن عصرنا الحاضر هو عصر المؤسسات وأن الحدث الهام هو الحدث الذي يطال المؤسسات الكبرى من أحزاب وجيوش وشركات وجمعيات والى ما

هنالك . لكننا نجد أن السهولة التي كثيراً ما تنهار فيها مثل هذه المؤسسات تضع علامة استفهام كبرى على صلابتها وأهميتها .

قد نحسم هذا النقاش حول تعريف الحدث التاريخي أي الحدث الذي هو جدير بالتأريخ ، فنقول « الحدث التاريخي هو ما يعترف به مؤرخو كل جيل بأنه هو الحدث التاريخي » . أي أننا أخذنا هنا بالتعريف الاصطلاحي : التاريخ هو ما اصطلح عليه مؤرخو الأجيال المختلفة بأنه جدير بالتأريخ .

ولأول وهلة قد نجد أن لمثل هذا التعريف الاصطلاحي مزايا لا يمكن لنا أن نتجاهلها . فلو سلّمنا جدلا أن التأريخ صناعة أو حرفة ، فنحن نجد أن الصانع ، أكان نجاراً أم حداداً أم صائغاً ، هو في نهاية الأمر الشخص الذي يقرّ أهل صناعة ما أنه منهم . المؤرخ إذا هو من يعترف به سائر المؤرخين أنه من أصحابهم والحدث التاريخي هو ما يتداوله أصحاب صناعة التأريخ ويقرّون أنه يليق بصناعتهم . ومثل هذا التعريف للحدث التاريخي له ميزة البساطة إذ أنه يعرّف علماً ما استناداً الى اصطلاح أصحاب ذلك العلم .

وقبل أن نقبل أو نرفض هذا التعريف للحدث التاريخي يجدر بنا أن نتذكر أن هذا المعيار هو الذي يأخذ به معظم المؤرخين في حياتهم العملية ، خصوصاً في قرننا هذا حيث اتسع نطاق البحث التاريخي اتساعاً فائقاً . فنحن نجد على رفوف مكتباتنا تاريخ القرية جنباً الى جنب مع تاريخ القارة . بل أكاد أقول أن النزعة التأريخية السائدة الآن هي باتجاه الأصغر فالأصغر من المواضيع . لقد أصبح معيار الحدث هو الرواج والاصطلاح فحسب . وقد نقول أيضاً في صدد الدفاع عن التعريف الاصطلاحي أننا إذا وجدنا من الصعب علينا أن نحدد معيار أهمية الحدث التاريخي معياراً مطلقاً نرجع الى النسبي فنقول « هام بالنسبة الى بعضه البعض » أو « بالنسبة الى عصره ومؤرخيه » ، أي نرجع الى الاصطلاح . ولا حاجة للقول بأن مثل هذا

التعريف الاصطلاحي ينطبق على علوم أخرى أيضاً .

ولا بد لي من الاعتراف أن هذا رأي يجد عندي قبولاً بشكل عام . لكنني أرى أيضاً أن هذا التعريف للحدث التاريخي لا يرضي « الضمير العقلي » (والتعبير لنيتشه) . انه لا يرضي الضمير العقلي كلياً لأن البحث في أي صنف من أصناف المعرفة يجب أن يتغذى دوماً بالنظريات ، بالتيار النظري ، والتي كثيراً ما تأتي من خارج ذلك الصنف . الباحث في علم من العلوم لا يجب أن يقنع بالاصطلاح فقط كتعريف لحدود علمه . عليه أن يبحث ليس فقط في قلب علمه بل وفي قالبه أيضا . عليه أن يسأل كلما سنحت له الفرصة عن القواسم النظرية المشتركة التي يرتكز اليها علمه وعن الجسور النظرية التي تربط علمه بالعلوم الأخرى . وإذا عرّفنا الحدث التاريخي تعريفاً اصطلاحياً فلربما نكون كالحرفي الذي لا يلتفت الا الى صناعته الخاصة به ولا يعبأ بما قد يستلهمه من الصناعات الأخرى . وسوف نبحث في الباب الثاني عن الحدث التاريخي وموقعه بين العلوم الأخرى .

وصلنا الآن على ما أظن الى مرحلة تستدعي منا بعض التوقف والتأمل فنحاول أن نضع تعريفاً يجمع شتات ما سبق من أقوال حول التاريخ ويضعنا أمام بعض المسائل التي سوف تأتي لاحقاً . قلنا أولا أن هناك فاصلاً هاماً بين التاريخ والتأريخ وأن هذا الفاصل يجر في أذياله مشكلات فكرية على جانب لا بأس به من التعقيد . وقلنا ثانياً أن التاريخ هو حوادث الماضي . ولنقل ثالثاً أن التأريخ هو صنف من أصناف المعرفة التي تتناول حوادث بشرية معينة حدثت في الماضي . ولنقل رابعاً أن فائدة التأريخ تكمن في التمرين العقلي على استخراج الحوادث ووضعها في نصابها القصصي والمنطقي .

لقد بحثنا ، ولو بشكل أولي ، في النقطتين الأولى والثانية المتعلقتين بالتاريخ ولكننا لم نبحث بعد في النقطتين الثالثة والرابعة

المتعلقتين بالتأريخ . التأريخ هو الجانب الذي سوف نركز عليه التـركيز الأكبـر في هذه المحـاضرات لذا فـإن ملاحـظاتي الآن حـول التـأريـخ وفائدته سوف تكون مقتضبة .

عندما نقول أن التأريـخ صنف من أصناف المعـرفة فنحن نعني أنه نوع من أنواع دراسة الأشياء وفهمها . « فالخبر » أو « المـاضي » أو « الحدث » أو « التاريخ » قد تكون كلها كلمات مبهمة لكن لا جدال في رأيي أن التـأريخ يمثـل نظرة معينـة الى الوجود غـايتهـا فهم هـذا الوجـود من خلال تـطوره ونموه . لنـأخذ هـذا الكرسي أمـامنا . نحن نفهمه هندسياً إذا حللنا جميـع زواياه وأشكـاله . ونفهمه كيمـائياً إذا حللنا مادتـه في مختبرنـا ونفهمه فيـزيائيـاً إذا اكتشفنا طاقتـه ونفهمه اقتصادياً إذا درسنا كلفته وسعـره والى ما هنـاك . نقول إذاً ان هـذه العلوم تساعدنا على تكوين صورة شاملة عن الكرسي . والتأريخ يدخـل بالضبط ضمن هذه الشمولية . فهو يضيف الى معرفتنا الكلية بالكـرسي تاريخ هذا الكرسي وتطوره ونموه الى ما هو عليه . التأريـخ إذاً يكسبنا معرفة من نوع خاص ، يكسبنا وجهة نـظر نضيفها الى وجهـات النظر الأخرى حتى تكتمل معرفتنا بـالأمور . وإذا كـان الكرسي مـوضع كـل هذا الاهتمام العلمي فالافراد والجمـاعات البشـرية التي تشكـل مادة التاريخ أولى بكثـير أن تحتاج الى التنـوير والايضـاح والمعرفـة من أي مصدر أتت . لنكتف بهذا المقدار من البحث في النقطة الثـالثة وننتقـل الى النقطة الرابعة وهي فائدة التاريخ .

« للتاريخ فـائدة هي العبـر أو الدروس » كلام يجب أن نتـطرق اليه ولو عرضاً في هذا المكان ، فهو كلام يمثل رأيـاً شائعـاً بين النـاس العاديين والعلماء على حد سواء وعلينـا أن نتفحصه بـإمعان . وجـدنا قبل قليل أن هذا الرأي هو نتـاج التأثـير الديني في مفهوم التـاريخ إذ رأينـا أن الدين قد أثبت أن للتـاريخ مغـزى ومعنى ورأينـا أيضـاً أن المعنى أو المغـزى الديني هو في الحقيقـة واحد : التـاريـخ هـو الله في

التاريخ . لنا إذا شئنا أن نـؤمن أن للتاريـخ عبراً ولكن علينـا أن نحدد بدقة ما تعنيه هذه العبر إذ أن هذا التفسير التقليـدي لفائـدة التاريـخ يخضع لعدة اعتراضات . هل تعني دروساً أخلاقية وعبـراً تتكرر عبـر العصور أم هل تعني حوادث معينة تشكل منظومة من نوع معين تتكرر عبر العصور ؟ أم هل تعني الاثنين معاً ؟ .

إذا بدأنا أولاً بالعبرة الأخلاقية أو الدروس الأخلاقية لا أرى في التاريخ أكثر مما قد يجده أي منا في أي كتاب من كتب الأمثـال مثلاً . إذا أردنـا أن نستنتج من مـوت رجل عـظيم ظالم عبـرة « لك يـوم يـا ظالم » فنحن لسنـا بحاجـة الى كتب التاريـخ بل تزودنا كتب الأمثـال بحكم أخـلاقيـة كثيـرة وأعمق بكثـير من « لك يـوم يـا ظالم » . كتب الأمثال هي خلاصـة عبر التـاريخ الشعبي وإذا استـرسلنا في مفهـوم العبر الأخلاقي وفي المقارنة بين عبر التـاريخ والأمثـال وجدنـا أن هذه الأمثال لا تؤدي بأي شكل من الأشكال الى فلسفة مترابطة فنحن نجد لكل مثل نقيضــه . هناك أمثـال تمجد الذكـاء وهناك أمثـال تدعـو الى الجهل . هناك أمثال تدعو الى القوة وأخـرى تدعـو الى الضعف وأمثال تدعو الى الامانة والصدق وأخرى الى الخبث واللؤم. كـذلك إذا أخذنـا التاريخ عـلى أنه منجم للأمثـال والعبر الأخـلاقية ، وجـدناه كـالأمثال يحـوي الحكمة ونقيضـهـا ، يجمع من كـل واد عصا ، ومن كـل طريق حكمةً تناقض غيرها .

أما إذا عنينا بالعبرة التاريخية المعنى الثاني أي وجود منـظومة من الأحداث تشكل وحدة تتكرر بين الماضي والمستقبل فنحن نقترب هنا من علاقة التاريخ بالقوانين وهو قول سنفصّل فيـه الحديث في الأبـواب اللاحقـة . لكن لو افترضنـا منظومـة كـالآتي : « ان المجتمعـات التي تعتمـد على العبيـد في انتـاجهـا الاقتصـادي لا تهتم غـالبـاً بـالتقـدم التكنـولوجي » ، أو إذا قلنا « ان ملكيـة الأرض غالبـاً مـا تكـون هـي المدخل الى مـرتبة الاشـراف » ، فنحن نجد أنفسنـا نتجه الى التـاريخ

وكأنه صندوق من صناديق الخبرة والحكمة الانسانية والتي تجذب الى التاريخ بعض علماء الاجتماع . لكن هل هذه الحكم بمثابة قوانين ؟ هل هي بالفعل من نفس فصيلة القوانين الطبيعية ؟ وإذا لم يكن للتاريخ فائدة سوى فائدة الخبرة والحكمة ، فكل شخص حكيم هو مؤرخ بالفعل ، لا يحتاج الى تعلم التاريخ ولا الى قراءته . فالتاريخ سهل المقصد والمنال لكل من فتح كتاباً وقرأ فيه ولا يحتاج الى معلم . ما فائدة التاريخ اذا ؟ واذا لم يكن للتاريخ فائدة واضحة فهل نجد للتأريخ فائدة ؟

هنا يصطدم التاريخ بالمجتمع الاستهلاكي . المجتمع الذي نعيش فيه يطلب ، وبحق ، ان تبرر العلوم المختلفة وجودها على ساحة الحياة ، ان تبرهن عن فائدة عملية يستفيد منها الناس . عندما نقول ان فائدة التأريخ الكبرى هي فائدة التمرين العقلي فنحن نضع جانباً ، ولو إلى حين ، مشكلة عبر التاريخ ونبرز بالمقابل الوجه العملي . فلو عملنا على استخراج الحوادث ووضعها في نصابها القصصي والمنطقي ضمن قواعد معيّنة ومحدّدة بدقة نكون قد روضنا العقل على نوع من انواع التفكير التي لها فائدة اعم من فائدة المعرفة التاريخية فحسب ، نكون قد وضعنا له هدفاً استقيناه من العلم لا من المعلوم . فالحياة كثيراً ما تواجهنا بمشكلات ، منها البسيط ومنها المعقد ، التي يشكل الفهم التاريخي بُعداً هاماً من ابعاد فهمها ككل .

اكتفي الان بهذا المقدار من الكلام عن التعريفات العامة للتاريخ واصل الى خلاصة هذا الباب فاقول : حاولنا في هذا الباب ان نعرّف التاريخ ووجدنا العديد من المشاكل التي تعيق الفهم التاريخي كما وجدنا ان للتاريخ تعريفات متعددة . وقد اقترحت عليكم تفسيراً عملياً يركّز على التأريخ ، ويعرفه كصنف من أصناف المعرفة وانتهيت اخيراً الى القول بان فائدته الكبرى تكمن في منهجيته . فلننتقل الآن الى اصنافه .

التاريخ واصنافه المختلفة في الماضي

الامامة ، الخلافة ، الدولة ، السياسة ، رجال الدولة ، الملوك ، السلاطين ، الحروب ، المعاهدات الديبلوماسية ـ ومن ثم ـ اغتيالات العظماء او موتهم ، سقوط الدول ، الانهيارات الحربية ، الازمات السياسية الحادة ، الثورات : هذه لاول وهلة هي معالم التاريخ ، هذه هي الامور التي تسلط عليها الاضواء ، هذه هي المراحل الكبرى التي يبدو وكأنها هي التي تحملنا من عصر وتضعنا في عصر اخر . عندما يموت عظيم فنحن ننتقل بقدرة قادر من عهد الى عهد . وتأبين العظماء لا يخلو من عبارات كالاتي : « بموت فلان انتهى عصر وبدأ آخر » . او « اليوم انتهت مرحلة وابتدأت مرحلة اخرى من تاريخ امتنا » .

قالوا دهت مصر دهماء فقلت لهم
اغيض النيل ام هل زلزل الهرم
قالوا اشد وادهى قلت ويحكم
اذا لقد مات شوقي وانطوى العلم

فمثل هذه الاحداث كثيرا ما تشبّه بالزلازل او الصواعق او البراكين او الطوفانات . وهذه التشبيهات كانت شائعة عند المؤرخين القدماء بقدر ما هي شائعة الآن عند المحدثين .

هذه باختصار ، وبتشويه متعمد ، هي مادة التاريخ السياسي ،

منذ ايام ثيوقيديدس اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد وحتى ايامنا هذه . التأريخ السياسي هو التأريخ السائد في كافة الحضارات والعصور ، بما في ذلك التأريخ العربي الاسلامي في عصوره الوسيطة والحديثة . فاذا استعرضنا مؤرخي القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) وهو القرن الذي شهد تثبيت القواعد الاساسية لكتابة التاريخ واصنافه (كما شهد ايضاً تثبيت القواعد النظرية لمعظم العلوم الاسلامية) ، نرى ان اهتمامهم ينحصر في الغالب بالامور السياسية بمعناها الاوسع ، كما عرّفناها اعلاه . قد تختلف المواضيع لكن المنهج واحد والروح واحدة . البعض منهم يبدأ ببدء الخلق ثم يتدرج حتى مجيء الاسلام ومن ثم ينتقل الى الخلفاء ، خلافة بعد خلافة ، حتى يصل الى ايامه . البعض الاخر يؤرخ لفتوحات المسلمين او لانساب اشرافهم او لطبقات الفضلاء منهم . والبعض منهم يبدي اهتماما خاصا بتاريخ فارس اما البعض الآخر فله معرفة خاصة بأيام العرب وغزوات الرسول والى ما هنالك . لكنهم جميعا ينظرون الى الاعلى ، الى علية القوم ، الى الملوك ، الى الاشراف ، الى اولياء الله الصالحين ، ومن ثم الى المعارك والفتن والحروب وتغيّر الدول ، او الى سير العظماء ومراتبهم وطبقاتهم . وفي العصور الاسلامية الوسيطة ، نجد ان هذا التأريخ السياسي يرتبط ارتباطا وثيقا بالطبقات الحاكمة بمعنى ان العديد من المؤرخين كانوا يكتبون اما بايحاء مباشر من رجال الدولة او تحت ظلالهم او لنيل رضاهم . وقد وصل هذا التأريخ السياسي الى مرتبة عالية من التحديد والتعريف عند مسكويه في كتابه **تجارب الامم** . ففي صدد حديثه عن فائدة التاريخ يقول مسكويه ما يلي : « واكثر الناس انتفاعا به واكبرهم حظا منه اوفرهم قسطا من الدنيا كالوزراء واصحاب الجيوش وسواس المدن »[1] فالتاريخ عند مسكويه

---

(١) مسكويه ، **تجارب الأمم** (لايدن : سلسلة جب التذكارية ، ١٩٠٩) ص ٥ .

هو تاريخ السياسة أو ما يسميه « التدابير البشرية والحيل الانسانية »[1] . وغزوات الرسول ليس لها أهمية تاريخية عنده لانها نصر الهي لا يستفاد منها عبرة ولا حيل . كذلك فان الفتوحات الأولى هي الاخرى لا أهمية سياسية لها اذ يقول : « لم اجد في تلك الحروب ... موضع حيلة ولا موقع تدبير تستفاد منه تجربة الا اليسير مما سنذكره وباقيه كله جهاد من القوم ونصر من الله واجتهاد من المسلمين وخذلان للفرس وانصرام لمدتهم ... وكان شرطنا في أول الكتاب الا نثبت من الاخبار الا ما فيه تدبير نافع في المستقبل او حيلة تمت في حرب او غيرها ليكون معتبراً وادباً لمن يستأنف من الامر مثله ... ولاجل ذلك تركنا ذكر اكثر مغازي الرسول ... لانها كلها توفيق الله ونصره وخذلان اعدائه ولا تجربة في هذا ولا تستفاد منه حيلة ولا تدبير بشري »[2] . لقد شذّب مسكويه التاريخ فانتزع منه كل الامور التي لا علاقة لها بالتجارب الانسانية كالمعجزات والخوارق وجعله سجلاً من الحلول السياسية التي توصل اليها حكام الماضي في سعيهم لتثبيت حكمهم . التدابير السياسية اذاً هي لب التاريخ عند مسكويه وأهل السياسة هم المعنيون بالتاريخ في المكان الأول .

وارتبط هذا التأريخ السياسي بالدولة واهل الحكم ليس فقط لاجل التدابير والحيل بل لاجل امور قد نسميها اليوم امورا ادارية بالمعنى الواسع . كتب المغازي والفتوحات مثلا كانت لها اهمية خاصة لانها كانت توفر للحكام امثلة من الماضي تنير لهم سبل الاحكام الادارية كالخراج واحكام اهل الذمة وتدبير المدن وما شابه . اهمية التاريخ هنا انه سجل من الاجتهادات والحلول التي توصل اليها السلف الصالح والتي تنير السبيل امام الخلف في ترسيخ قواعد الحكم الاسلامي

---

(١) تجارب الامم ، ص ٢٧٢ .

(٢) تجارب الامم ، ص ٣٠٧ .

الصحيح . فالتأريخ الاسلامي كان منذ البداية يلبي حاجات عملية وفقهية وادارية برزت الى الوجود منذ نشوء الخلافة الراشدة واستمرت بل وتعاظمت مع اتساع رقعة الدولة الاسلامية وتعاظم مشاكلها الادارية . كان هذا الامر نوعا من انواع العرض والطلب كما يسمى في علم الاقتصاد . اشتد الطلب على الهداية في أمور الدولة فجاء التأريخ السياسي ليلبي هذا الطلب ويعطي الحاكم والفقيه ورجال الدواوين ما يحتاجونه من سوابق الاحداث التي تبنى عليها الاحكام .

ولم تكن الحوافز الفقهية والادارية هي وحدها التي اوجدت التأريخ السياسي في الاسلام بل ان الاعاصير التي هبت على الامة الفتية بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان والفتن المتتابعة وتمزق الامة الى شيع وفرق كانت ايضا من بين اهم الدوافع لبروز التأريخ السياسي . فالعديد من هذه الفرق الاسلامية الاولى كانت ترجع الى التاريخ لتبرير ما اعتنقته من مبادىء . وكان للشيعة على الاخص دور هام في هذا المضمار اذ ان الخلاف بين فرق الشيعة المختلفة وبين غيرهم من المسلمين كان يدور حول مواضيع (مسألة النص على الامام علي مثلا) لا تحسم الا بالرجوع الى التاريخ . ليس من قبيل الصدفة إذاً اننا نجد العديدين من مؤرخي الاسلام في قرونه الاربعة الاولى من الشيعة او من المتشيعين ، كاليعقوبي والطبري والمسعودي وغيرهم .

الحوافز الدينية والادارية والصراعات السياسية هي التي خلقت التأريخ في الاسلام وهي التي صبغته بالصبغة الدينية والسياسية منذ ان وجد . ونحن لا نعرف الكثير عن القرن الاول من تاريخ التأريخ العربي الاسلامي اذ ان التواريخ المكتوبة في ذلك العصر لم تصل الينا كاملة بل وصلت على شكل مقتطفات نجدها عند مؤرخي العصور اللاحقة . لكن بامكاننا ان نقول ان الاهتمامات الدينية والسياسية كانت توجد جنبا الى جنب منذ البداية . فنحن نجد صنفين من التأريخ الاسلامي عند نشوئه : احدهما يركز على السيرة النبوية وغزوات

الرسول وتاريخ الصحابة الاوائل وهـو صنف يشبه الحـديث في مادتـه واسلوبه والثاني يركز على تاريخ الجزيرة العربية وقبائلهـا (ما يسمى ايـام العرب) وعـلى مواضيـع تـوراتيـة وغـير تـوراتيـة (مـا يسمى الاسرائيليات) . ومع مرور الزمن اتسعت الهوة بين الحديث والتأريخ اذ ان مادة الحديث بدأت تنضبط وتتخذ شكلا نهائيا في القـرن الثالث (اي قرن البخاري ومسلم) اما التاريخ فكانت مادته تتسع باطّراد .

ويبدو ان توسع الامبراطورية الاسلامية (من اموية وعباسيـة) ولقاءها القومي والحضاري مع امم وحضارات اخـرى هو الذي جعـل المؤرخين المسلمين يلتفتون الى مشكلة اخـرى رئيسية ، الا وهي : مـا هي علاقة الاسلام بهذه الحضـارات الاخرى ؟ ومـا موقـع الاسلام في تاريخ العالم ؟ هذا سؤال حضاري تواجهه كافة الحضارات في فترة ما من فترات تاريخها . مؤرخو القرن الثالث للهجرة (التـاسع للميـلاد) هم الذين صاغوا الجواب على ذلك السؤال . القرن الثالث للهجرة هو قرن التخصص والجدل في تاريخ الفكر العربي الاسلامي ، هو الذي شهد تفرع العلوم الاسلامية وشهد ايضا الجدل الفكري الذي بدأ مع الحضارات الأخرى. وفي هذا القرن أيضاً حدد التأريخ الاسلامي مادته ومنهجه وفائدته . ففيما يختص بالمادة ، اتسعت مادة التاريخ العـربي الاسلامي تماماً كما اتسعت رقعة الدولة خارج الجزيرة العربية . اذ ، بالاضافة الى تاريخ الرسول وصحبه وتاريخ الجزيرة العربيـة ، اكتسب التأريخ حقولا جديدة من المعرفة كان عليه ان يربطها بشكـل او بآخـر مع اسلام الجزيرة . واهم تلك الحقول الجديـدة المكتسبة كـان تاريـخ الفرس والتاريخ التوراتي . فتاريخ الفرس كما اكتشفه المؤرخون تاريخ طويل جدا يرجع الى بداية الخليقة . فللفرس آدم اسمـه كيومـرت كما ان لهم تاريخاً على سنـوات ملوكهم متواتراً ومضبوطاً. فكان على المؤرخين المسـلمين ان يلتفتوا الى هذا التاريخ ويـدمجوه مـع التاريـخ التوراتي ليكونـوا تاريخـا متزامنـا ، متواقتـا ، بمعنى آخر ، عـالميا ،

يشكل في مجمله الماضي الحضاري الذي سبق بروز الاسلام .

عملية الدمج التاريخي هذه نجدها على اتمها في الاقسام الاولى من تاريخ الطبري (القرن ٤ / ١٠) فالطبري يبدأ مع بدء الخلق ويتدرج عبر العصور مع تاريخ يجمع بين تاريخ الفرس والتاريخ التوراتي وتاريخ الجزيرة قبل الاسلام . ومحور هذا التاريخ كما مر بنا صراع بين الرسل والملوك استلهمه الطبري من القرآن الكريم . لكن الفرس وشعوب التوراة لم تكن الامم الوحيدة التي جابهها المؤرخون المسلمون اذ ساد الاعتقاد في القرنين الثالث والرابع ان الحضارة الانسانية التي سبقت الاسلام كانت تتمثل في عدد من الامم (البعض يقول انهم اربعة والبعض سبعة والبعض ثمانية) هم الذين وضعوا قواعد الحضارة البشرية ، فأسس الحكم للفرس والزراعة للكلدانيين والحكمة لليونانيين والسحر للمصريين والعلوم الطبيعية للهنود والفنون التصويرية للصينيين والى ما هنالك . اذاً وابتداء من القرن الثالث للهجرة ، نجد ان التأريخ العربي الاسلامي قد اكتسب ، بالاضافة الى صبغتيه الدينية والسياسية ، صبغة حضارية عالمية كانت من اهم خصائصه في العصور الوسطى . لم يخترع المسلمون التأريخ السياسي اذ كان هذا التأريخ موجودا عند اليونان والرومان . ولم يخترعوا التأريخ الديني لانه كان موجودا عند مؤرخي المسيحية في قرونها الخمسة الاوائل . لكنهم كانوا من روّاد التأريخ الحضاري العالمي . طبعا ، نجد التأريخ الحضاري العالمي عند هيرودوتس اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد كما نجده ايضا عند اوروسيوس في القرن الخامس بعد الميلاد (اوهوروشيوش كما سماه المسلمون في الاندلس) لكننا لا نجده في اية حضارة قديمة او متوسطة اخرى كثيفا ككثافته في الحضارة العربية الاسلامية .

اما فيما يختص بالمنهج او الاسلوب التأريخي فقد بدأ التأريخ الاسلامي منذ القرن الثالث للهجرة يستعمل اسلوب السرد المتواصل

فيبتعد عن اسلوب الاسناد المتبع في الحديث ويقترب الى اسلوب الانشاء الادبي . فالاسانيد لم تكن متوفرة بالنسبة الى تواريخ الامم الاخرى . والعلوم الفلسفية والطبيعية اثرت على بعض المؤرخين فجعلتهم يلتفتون الى معايير فلسفية لا معايير فقهية في رصد الحقيقة والصدق وتمييزها عن الكذب . الادب والعلوم الفلسفية اذا تركت اثرا بالغا في اسلوب التأريخ ومنهجه .

وفيما يختص بفائدة التاريخ ، وجدنا قبل قليل عند المؤرخ مسكويه ذلك الربط بين التاريخ وبين الدروس السياسية التي يستفيد منها اصحاب الدول على وجه الخصوص ، كما وجدنا عند بعض المؤرخين الذين كتبوا تواريخ الامم السالفة اهتماما بالغا بالتاريخ الحضاري ، وكأن التاريخ سجل للحكمة البشرية وصل الى كماله مع مجيء الاسلام . فكما ان الاسلام هو خاتم الاديان السماوية كذلك نجد عند بعض المؤرخين ان الاسلام هو خاتم الحضارات البشرية وخاتم الحكمة الانسانية . الاسلام يتمم الحضارات الاخرى تماما كما تتمم رسالته رسالة الاديان السابقة .

اما فيما يختص بترتيب المادة التاريخية وتنسيقها فقد اعتمد معظم المؤرخين ، خصوصا عند وصولهم الى فترة ظهور الاسلام ، على الترتيب الحولي (اي على السنين) او على ترتيب الاسر الحاكمة والخلفاء . وكان مثل هذا الترتيب امرا طبيعيا في التأريخ العربي الاسلامي اذ انه يعكس اهتمام المؤرخين بالاحداث السياسية العظمى والاخبار التي تتعلق برجال الدولة ، كما اشرنا اعلاه . لكن هذا الترتيب كانت له ايضا فوائد عملية اذ انه يسهل على الفقهاء وطلاب العلم مهمة الرجوع الى التاريخ لاستنباط الاحكام . فقد كانت كتب التاريخ شبيهة بما نسميه اليوم الكتب المدرسية وكان تيسير الوصول الى المعلومات هدفا هاما من اهداف المؤرخين . وقد ظل هذا الترتيب

الحولي قائما في التأريخ العربي الاسلامي حتى عصورنا الحديثة ولا نزال نلمس آثاره في العديد من الكتب المدرسية وغير المدرسية في ايامنا هذه .

قلة فقط من المؤرخين اهتمت بالامور الفلسفية او النظرية التي يثيرها التأريخ ، كما بحثنا عنها في الباب الاول . كانوا جميعا يكتبون تحت ظلال النظرة الدينية الى التاريخ اي ان للتاريخ مغزى ومعنى وليس احداثا عشوائية متضاربة . لكنهم لم يكونوا جميعا على نفس الدرجة من الاهتمام بمعنى الحقيقة التاريخية او معنى المعرفة التاريخية ، او بسبل الوصول الى تمييز الخطأ من الصواب والممكن من المستحيل . بعضهم كان يكتفي بمنهجية الحديث وآفاقه فيما يختص بتقييم الخبر التاريخي ، اي يكتفي بمنهجية المتن والسند وبمنهجية الجرح والتعديل كما تسمى في علوم الحديث . يقول الطبري ويجدر بنا ان نستشهد بالنص كاملا :

« وليعلم الناظر في كتابنا هذا ان اعتمادي في كل ما احضرت ذكره فيه مما شرطت اني راسمه فيه انما هو على ما رويت من الاخبار التي انا ذاكرها فيه والاثار التي انا مسندها إلى رواتها فيه دون ما ادرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس الا اليسير القليل منه اذ كان العلم بما كان من اخبار الماضين وما هو كائن من انباء الحادثين غير واصل الى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم الا باخبار المخبرين ونقل الناقلين دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس مما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه او يستشنعه سامعه من اجل انه لم يعرف له وجها في الصحة ولا معنى في الحقيقة فليعلم انه لم يؤت في ذلك من قبلنا وانما اتى من قبل بعض ناقليه الينا

وانا انما ادينا ذلك على نحو ما ادى الينا[1] .

ثم يقول بعد هذا الموضع بقليل :

« انا انما نعتمد في معظم ما نرسمه في كتابنا هذا على الاثار والاخبار عن نبينا صلعم وعن السلف الصالحين قبلنا دون الاستخراج بالعقول والفكر ، اذ اكثره خبر عما مضى من الامور ، وعما هو كائن من الاحداث . وذلك غير مدرك علمه بالاستنباط والاستخراج بالعقول »[2] .

يربط الطبري هنا بين التأريخ والحديث من جهة الاسلوب وتمحيص الاخبار ، فصحة النقل عنده هي التي تكفل صحة الخبر . اما الخبر الذي يستشنعه العقل فانه يروى على ذمة راويه لا على ذمة المؤرخ . وهذا الرأي يجعل من المؤرخ جامعا للاخبار فحسب ، فالطبري لا يستعمل الادلة العقلية لتمحيص الاخبار الا فيما ندر . وقبل ان نتّهم الطبري بانه سلب المؤرخ عقله يجدر بنا ان نتذكر ان قلة قليلة من المؤرخين في كافة الامكنة والعصور هي التي التفتت بجد الى نظرية المعرفة والى الامور النظرية التي يثيرها التأريخ ، فكتابه اشبه بالموسوعة التاريخية في اسلوبه منه بالتأريخ المتسلسل الذي نألفه اليوم .

لكن كانت هناك قلة من المؤرخين في صدر الاسلام اهتمت بمشكلة المعرفة التاريخية . لنقارن مثلا ما سمعناه من الطبري بما يقوله المسعودي :

« وما ذكرنا فغير ممتنع كونه ولا واجب وهو داخل في حيّز الممكن والجائز لان طريقه في النقل طريق الافراد والآحاد ولم

---

(١) الطبري ، **تاريخ الرسل والملوك** . تحقيق دي خويه (لايدن : بريل ، ١٨٧٩ - ١٩٠١) السلسلة الأولى ، ص ٦ .

(٢) الطبري ، **تاريخ** ، السلسلة الأولى ، ص ٥٦ .

يرد مجيء التواتر من المخبرين والاستفاضة من الاخبار ...
فان قارنتها دلائل توجب صحتها وجب التسليم لها ... وانما
ذكرنا هذا ليعلم من قرأ هذاالكتاب انا قد اجتهدنا فيما اوردنا
في هذا الكتاب وغيره من كُتُبنا ولم يغرب عنا فهم ما قاله الناس
في سائر ما ذكرنا »[1] .

والدلائل هذه عند المسعودي تأتي عن طريق البحث والنظر والفحص ومعرفة العادات والسنن الطبيعية . فالمؤرخ عليه ان يبحث لا في اسناد خبره فحسب بل وفي متنه كذلك وان يستخدم في هذا البحث علوم عصره وجيله . وهكذا ادخل المسعودي وامثاله العلوم العقلية (من فلسفية وطبيعية) الى حيز التأريخ فاصبح البحث عن الطبيعة مواكبا للبحث عن التاريخ واصبحت امور كثيرة كالامة واللغة والملك والعوامل الجغرافية من المواد التي يتناولها المؤرخ لما لها من العلاقة في تكوين حياة البشر . وقد وصل هذا التيار الفلسفي في التأريخ الى قمته في العصور الوسيطة عند ابن خلدون .

ولكن قبل ان نصل الى ابن خلدون يجدر بنا ان نقف قليلا عند هذا الحد فنستعرض اصناف التأريخ التي ظهرت في العصور الاسلامية الوسطى وخصائصها العامة . قلنا قبل قليل ان العرب عرفوا التاريخين السياسي والديني وانهم اهتموا اهتماما خاصا وملفتا للنظر بالتاريخ الحضاري او العالمي ، وان البعض منهم كانوا منفتحين على العلوم العقلية (من فلسفية وطبيعية) فاغنوا بذلك ملاحظاتهم النظرية حول التاريخ البشري والاسباب الطبيعية التي تتحكم بمسيرة الاحداث . هؤلاء المؤرخون من ذوي النزعة الفلسفية هم بالفعل اسلاف ابن خلدون ، هم الذين شقوا الطريق امامه . فنحن كثيرا ما ننسى البيئة التأريخية التي خرج منها ابن خلدون فننظر اليه وكأنه

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، الفقرة ٢٩١ .

رجل فريد من رجال الفكر العربي الاسلامي ، كأنـه خلق مـن لاشيء ، كأنه نجم مذنب لمع في سماء الحضارة العربية الاسلامية (كما يسميه المؤرخ الانكليزي المعاصر توينبي) ثم تلاشى بدون أثر . اذاً علينا ان نؤكد ان ابن خلدون خرج من تراث تأريخي طويل حاولنا تبيان اصنافه الكبرى فيما سبق .

لا يمكن في هذا الباب ان نبحث في فكـر ابن خلدون بأي عمق او تفصيل فهو مفكر يحظى الان باهتمام عربي وعالمي هائل ولا بد لنا من دراسته على حدة خصوصاً اذا اردنا ان نحيط بكل مـا كتب ويكتب عن ابن خلدون . ففي اخر دراسة صدرت عنه عـام ١٩٨١ (وهي دراسة بالانكليزية بعنوان Ibn Khaldun in Modern Scholarship للدكتور عزيز العظمة) يورد المؤلف ٨٥٩ دراسة ، من كتب ومقالات ، صدرت عن ابن خلدون في كـافـة اللغـات تقـريبـا . وانـا ارى ان هـذا الرقم متـواضع . لكننـا لا يمكن لنا ايضـا ان نتجاهـل ابن خلدون ونحن في صدد الحديث عن اصناف التأريخ العربي الاسلامي واصناف التأريخ في يومنا هذا . اذاً سوف نستعمل ابن خلدون كجسر من جسور العبور بين اصناف التأريخ العربي الاسلامي في العصـور الوسيطة واصنـاف التأريخ العام في عالمنا الحاضر . فابن خلدون هو بلا جدال من مؤسسي التأريخ الاجتماعي ، من مؤسسي النظرة التي حوّلت مجرى التأريخ من حقل الانسان الى حقل الجماعـة ، من الله الى الطبيعة ، من الخـاصة الى العـامة ، (« من الصـالون الى المطبـخ » على حـد تعبير المـؤرخة الانكليزية ايلين باور) من القصور الى الاسواق ، ومن الحدث الفردي الى منظومة الاحداث التي تشكل في مجموعها علماً يسميه ابن خلدون « علم العمران » . هذا العلم هو بمثابة الاساس الذي يبنى عليـه فهم التاريخ وكتابته .

كثيرا ما يـردد ابن خلدون العبارة التـالية : « ان الانســان ابن عوائده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه » . هذه العبـارة تذكـرنا بـالمثل

العربي القديم الذي مررنا بـه من قبل وهـو « الناس بـازمانهم اشبـه منهم بآبائهم » . واذا اردنـا تبسيط الامـور فقد نقـول ان ابن خلدون يميل الى قبول التـطبع لا الطبـع . المجتمع هـو الذي يخلق الانسان لا التاريخ . اذا اردنا ان نفهم الانسان علينا ان نفهم الاحوال التي تغـير المجتمعات لا تسلسل الاحداث العابر الذي لا يعدو كونه قصـة « مليئة بالضجيج والعنف لا معنى لها » كما يقول احد ابطال شكسبير .

وهذا التركيز على المجتمـع لا على الفـرد هو بـدون شك من أهم أسباب الاهتمام الذي نلمسه في قرننـا هذا بفكـر ابن خلدون في الوطن العـربي وخارجـه ، إذ أن هذا القـرن شهد تـوسعـاً هـائـلاً في العلوم الاجتمـاعيـة كعلم الاجتمـاع وعلم الانســان وعلم الاقتصـاد وعـلم الحضارات المقارن ، كما شـهد بـالطبع تـوسعاً عـظيماً في المـؤسسات الاجتماعية الكبـرى . واهتم بفكره أيضـاً علماء المـاركسية وزعمـاؤها الذين رأوا فيـه أباً روحيـاً لهم بسبب تركيـز ابن خلدون على العـوامل المـادية في التـاريخ لا عـلى العوامـل الالهية . واهتم بـه أيضـاً علمـاء السيـاسة إذ وجـدوا فيه تحليـلاً عميقاً ووافيـاً لطبيعة السلطة وتقلب الدول . ونتج عن هذا الاهتمام الكبير بابن خلدون تفاسـير شتى لفكره كثيراً ما تعكس اهتمامات المـؤلف الخاصـة لا فكر ابن خلدون ككـل . ونحن لن نقدم هنا تفسيراً آخر يضـاف الى التفسيرات المـوجودة عـلى الساحة في هذه الايام لفكر ابن خلدون وفلسفته . بـل نركـز فقط عـلى ناحية خاصة من نواحي فكره هي علم العمران الذي جعله ابن خلدون مدخلاً لفهم التاريخ .

> يقول ابن خلدون : « حقيقة التاريخ أنـه خبر عن الاجتمـاع الانســاني الذي هو عمـران العالم ومـا يعرض لطبيعـة ذلك العمـران من الأحوال مثـل التوحش والتـأنس والعصبيـات وأصنـاف التغلبات للبشر بعضهم عـلى بعض وما ينشـأ عن ذلك من الملك والدول ومـراتبها ومـا ينتحله البشر بأعمـالهم

ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال »[1] .

أما المؤرخ ، فهو يحتاج على قول ابن خلدون :

« الى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال والاحاطة بالحاضر من ذلك ومماثله ما بينه وبين الغائب من الوفاق ، أو بون ما بينهما من الخلاف وتعليل المتفق منها والمختلف والقيام على أصول الدول والملل ومبادىء ظهورها وأسباب حدوثها ودواعي كونها وأحوال القائمين بها وإخبارهم حتى يكون مستوعباً لأسباب كل خبره وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول فإن وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحاً وإلا زيّفه واستغنى عنه »[2] .

إذا تأملنا ما يقوله ابن خلدون هنا وجدنا أنه قد نقل حقل التاريخ من الحديث الفردي الى الأحوال العامة . وفهم الأحوال العامة يعني أن المؤرخ عليه أن يلمّ ليس فقط بطبيعة السلطة السياسية بل بعوائد البشر وكيفية كسبهم وبالصنائع البشرية كما يلم أيضا بالأفكار والمذاهب التي تنشأ في الأمم والدول المختلفة وببيئة هذه الأفكار . وإذا رجعنا الى أصناف التاريخ وهو موضوع بابنا هذا فقد نقول أن المؤرخ في رأي ابن خلدون يجب أن يهتم بالتاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي والحضاري والعالمي والجغرافي والفكري . هذا الالمام الشامل هو فقط الذي يتيح للمؤرخ فهم التاريخ على حقيقته وهذه الشمولية هي ما يسميه ابن خلدون العمران البشري . وعمران أمة ما

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة (القاهرة : دار الشعب ، لا . تا .) ، ص ٣٣ .

(٢) المقدمة ، ص ٢٧ .

أو جيل ما هو الذي يحدد تاريخ هذه الأمة أو ذلك الجيل . نبدأ بالأكبر ثم ننتقل الى الأصغر ، نبدأ بالمجموع ثم ننتقل الى الفـرد ، نرى الشيء مكبّراً ثم بعد ذلك نراه مصغراً . الحوادث الكبرى لها أسباب كبـرى . كلما توسع الحدث كلما توسعت أسبابه . هـذا هو تسلسـل الفهم عند ابن خلدون .

تطرح آراء ابن خلدون تحديـات فكريـة كثيرة أمـام المؤرخ ولن نتعرض هنا الا للبعض منها ، إذ يبدو وكأن ابن خلدون يقول أن التأريخ الحقيقي هو التأريخ العالمي الشامل المـوسوعي . ويـظهر هـذا الأمر في عنوان كتابه وهو « كتاب العبر وديوان المبتـدأ والخبر في أيـام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر » . هذا العنوان وخصوصاً عبارة « ديوان المبتدأ والخبـر » تدل بـوضوح عـلى ضرورة الاحاطة بكافة العلوم إذا أريد للتاريـخ أن يفهم على حقيقتـه . وهذا المفهوم الخلدوني يبـدو وكأنـه يتعارض مـع مفهوم التـاريخ لدى معظم المؤرخـين . فالمـؤرخ « العادي » يجمـع الحوادث الواحـدة تلو الأخـرى ليبني منها في النهـاية صـورة تاريخيـة عن موضـوع معين . والحادثة الفردية هي مـادة المؤرخ الأسـاسية فهـو يتعامـل معها كمـا يتعـامل المحـامي مع الوقـائع الواردة في ملف قضيتـه إذ أنه يـوازنها ويقابلها مع حوادث أخرى ليصل في نهاية الأمر الى رسم صورة واقعية للماضي . المؤرخ كالمحامي لا يمكنه أن يتجاهـل الحقائق المنفـردة فهي من نسيج عمله . أما ابن خلدون فيبدو وكأنه يقول للمؤرخ : لا تلتفت الى الحوادث المنفردة في زمن ما بل الى الأحوال القائمة في ذلك الزمن ، أو كأنه يقول له : لا تسأل ، هل حدث هـذا الأمر أم لا ، بـل اسأل ، هـل كان بـالامكان أن يحـدث مثل هـذا الأمـر في مثـل ذلك الزمـان ؟ والتمييز بين الممكن والمستحيل وبين الخطأ والصواب لا نجـده في رأي ابن خلدون الا في علم العمـران الذي هو بمثـابة المقيـاس الذي يقاس عليه التاريخ .

إذاً لقد نقلنا ابن خلدون من التاريخ الى ما وراء التاريخ فالتاريخ لا يعـرف على حقيقتـه الا بـالرجـوع الى البيئـة (أو العمـران) التي يتحرك فيها . واكتشاف البيئة البشـرية يـؤدي الى اكتشاف المـؤثرات الخفيـة التي تتحكم بمسيرة التـاريخ . والبيئـة تعني فيما تعنيـه ليس فقط تطور الكائنات الطبيعية بل تعني أيضاً تطور المجموعات البشـرية من حـال الى حال ، وخصـائصها في كـل حال من تلك الأحـوال . فإذا فهمنا هذه التـطورات وأسبابهـا ، ننتقل بعـدئذ الى الحـوادث المنفردة فنفهمهـا في نصابهـا الصحيح . وهـذه في الواقع نـظرية أو فلسفـة في التاريخ استقاها ابن خلدون من خارج التاريـخ ، من علوم شتى نلمس فيها بوضوح أثر الفلسفة والعلوم اليونانية وأثـر الشريعـة الاسلاميـة وأثـر الاهتمـام الشـديـد بـالتـاريـخ المقـارن وبـالعلوم الاجتمـاعيـة والاقتصادية والسياسية . وهذه النظرية تبتعد بنا عن التأريـخ الديني بقدر ما تبتعد عن التأريخ السياسي بمعناه الضيق . فالتاريخ عنـد ابن خلدون لا يتمحور في الصراع بين الخير والشر كمـا في التأريـخ الديني ولايتمحور في سير العظماء كما في التأريـخ السياسي بـل محور التـاريخ عنده هو التفاعل بين البشر والبيئة . هو إذاً تاريخ دنيـوي اجتماعي يجري بمقتضى سنن طبيعية يمكن اكتشافها باستخدام علم العمـران . ولا ريب عندي أن ابن خلدون مدين بـالكثير الى من سبقـه من مؤرخي الاسـلام وخصـوصـاً مـؤرخي الحضـارات الذين دفعهم اهتمـامهم الحضاري والفلسفي الى البحث عن المبادىء والأسس الاجتماعية التي تجرى عليها أحداث الماضي .

مع ابن خلدون إذاً نصل الى التاريخ الاجتماعي بمعناه الواسـع والمتكامل . فقد وجدنا حتى الآن أن الأصناف التأريخية التي طورتهـا الحضارة العربيـة الاسلاميـة هي التأريـخ الديني والتأريـخ السياسي والتأريخ الحضاري والتأريخ الاجتماعي . كل هذه الأصنـاف استمرت

حتى يومنا هـذا الا التأريـخ الاجتماعي . مـأساة ابن خلدون في رأيي هي أنهُ لم يخلف وراءه تلامذة حملوا عنه علمه وتقدموا به الى الأمام . لقد نبع هـو من تراث عميق لكنـه لم يخلف وراءه تراثـاً ، إلا لربما في قرننا هذا .

الباب الثالث ■■■

التاريخ و أصنافه المختلفة في الحاضر

والآن وإذا وصلنا الى الحاضر فلنطرح السؤال الآتي : لو افترضنا أن أحد مؤرخي العصور الوسطى العربية قد بعث حياً في يومنا هذا فما هي الأصناف التأريخية التي سوف يجدها مألوفة لديه وما هي الأصناف التي قد يراها جديدة وغير مألوفة ؟ للاجابة عن هذا السؤال ، وهو لربما سؤال مصطنع ، قد نقول في البداية ان مثل هذا المؤرخ لن يجد أصنافاً كثيرة ستكون غريبة تماماً عليه . وجه الغرابة قد يكون في تغيير المؤسسات السياسية التي قد يتناولها المؤرخ السياسي في أيامنا هذه كالأحزاب مثلا أو المؤسسات الكبرى . ولن يجد على ما أظن تغييراً كبيراً في التأريخ الديني ولن يجد على الأرجح تغييراً كبيراً في التأريخ الحضاري والعالمي . لكن الفارق الأعظم يكمن في رأيي في أمرين : أولهما الفارق الذي يفصل بيننا وبين علماء العرب الماضين في النظرة الى العلوم ، بما فيها التاريخ ، وثانيهما التطور الكبير الذي شهده القرن العشرون في العلوم الاجتماعية .

فيما يختص بالفارق الأول ، أي في النظرة الى العلوم ، فإن الشبكة من العلاقات التي تربط علوم عصرنا الحاضر بالمؤسسات الداخلية والخارجية الاقتصادية والفكرية والاجتماعية والسياسية والعسكرية ، من حكومية وخاصة ، قد أحدثت شروخاً عميقة بين هذه العلوم . وهذا ما نسميه عادة التخصص المفرط في العلوم ونقول انه هو

الذي يميّز علوم عصرنا عن علوم العصور السابقة . هذا القول ليس صحيحاً تماماً فالتخصص في العلوم أمر يزداد وينقص عبر التاريخ الفكري . هناك فترات حضارية يزداد فيها التخصص (القرن الثالث والرابع للهجرة مثلاً) بسبب اتساع شبكة العلاقات التي أشرت اليها أعلاه وأخرى ينكمش التخصص بسبب انكماش هذه الشبكة (القرن الحادي عشر للهجرة مثلا) . وقضية التخصص في تاريخ الفكر العربي الاسلامي من المواضيع الجديرة بالبحث ، بلا شك ، لكننا لن نغوص فيه هنا . فالتخصص الدقيق هو من ميزات عصرنا هذا . ولكن عندما نتكلم عن التاريخ نجد أن هذا التخصص كان سائداً أيضاً في القرنين الثالث والرابع للهجرة . فنحن عندما نقرأ مقدمة كتاب **مروج الذهب** للمسعودي نرى فيها عرضاً وافياً للمؤرخين الذين سبقوه أو عاصروه ونجده يصنفهم على أنواعهم فهذا للمغازي وذاك لتاريخ الفرس والآخر لفتوح البلدان أو للتاريخ الأدبي أو لتاريخ الأمويين أو العباسيين أو للوزراء أو للكتاب أو للحيل العسكرية أو للسيرة النبوية أو لتاريخ ما قبل الاسلام أو لتاريخ مدينة ما أو صقع ما ، والى ما هنالك . إذاً هناك عصور عرفت التخصص في التاريخ كما نعرفه نحن لكن الفارق في رأيي قد يكمن في النظرة السائدة الى العلوم ككلّ والتي قد نسميها النظرة الأدبية . وقد أوجزنا هذا الاختلاف بيننا وبينهم في كلمة « أدب » فالأدب في مفهومنا العصري يعني في الغالب القصة والشعر والنثر الفني والمسرح أما الأدب في القرنين الثالث والرابع فكان له معنى أعمق بكثير إذ كان يعني الالمام بكافة العلوم والاخلاق اللازمة لها في سبيل تكوين ما يسمى بالأديب . فمع وجود التخصص كانت هنالك أيضا نظرة سائدة تحبذ الالمام بكافة العلوم حتى يكتمل العلم بمعناه الصحيح . أما اليوم فنحن لا نجد بين مؤرخي العصر الحاضر رغبة في مثل هذا الالمام الشامل الا ضمن حدود معينة واقليمية في الغالب . بل نجد هؤلاء المؤرخين يلتئمون في المئات من المؤتمرات التاريخية التي

تعقد سنوياً والتي غالباً ما تتناول مواضيع محددة في الزمان والمكان .

أما الفارق الثاني بيننا وبين مؤرخي الأمس الذي قد يلحظه ذلك المؤرخ الذي بعثناه حياً قبل قليل فهو القفزة النوعية والكميّة العظيمة في العلوم الاجتماعية في قرننا هذا والتأثير الكبير الذي أحدثته هذه القفزة في كتابة التاريخ . والأمثلة على هذا التأثير كثيرة وسوف أتناول منها أمرين فقط ، أولهما تغلغل الاحصائيات في التأريخ المعاصر وثانيهما الاهتمام المتعاظم بتاريخ الريف . أما الاحصائيات ، فبالرغم من وجود بعض التحفظات الهامة على استخدامها في التاريخ ، ومنها مثلا رمزية الأرقام في بعض الوثائق والنصوص القديمة ، الا أن هناك بعض الأصناف من الكتب التاريخية التي قد تزودنا بمعلومات هامة جدا إذا شئنا أن نبوبها ونحصيها بشكل دقيق . فكتب الطبقات في التاريخ العربي الاسلامي تتناول سير مئات الألوف من المسلمين الذين عاشوا في مختلف العصور وتورد معلومات اجتماعية واقتصادية عنهم تمكننا من الوصول الى نتائج تاريخية هامة عن عصورهم . وقد ظهرت بعض المقالات والكتب في الآونة الأخيرة التي استعملت العقول الألكترونية والوسائل الرياضية والتحليلية الأخرى لفرز وتبويب المعلومات الواردة في كتب الطبقات . يمكننا مثلا من خلال استخدام هذه الوسائل التقنية أن نكتشف أسماء أهم الكتب المتداولة بين العلماء في بعض أصناف العلوم كالفقه أو التفسير أو ما شابه . وبإمكاننا أيضا أن نستخدم هذه الوسائل لاكتشاف أمور أخرى تتعلق بمعدل أعمار هؤلاء العلماء أو بأموالهم ومعاشهم أو معدل عدد أفراد عائلاتهم . وهذه كلها أمور جديرة بالعناية لأنها تكمّل لنا صورة المجتمع الذي عاش فيه هؤلاء العلماء وتمنحنا فهما أدق لشبكات العلوم في العصور المختلفة .

أما فيما يختص بتاريخ الريف فهنا أيضا أجد أن مؤرخنا المبعوث من قبره قد يجد فيه بعض الغرابة . لماذا نجد مثل هذا

الاهتمام بتاريخ الريف في عصرنـا الحاضر ؟ لعـل من بين أسبـاب هذا الاهتمام بروز الوطنية الديمقراطية كإحدى أهم الايديولوجيات في زمننا الحاضر ، هذه الوطنية التي تفرض علينـا حب كافـة أرجاء أوطاننـا : تفـرض حب تراب الـوطن . ويعـزز هـذا الحب الشعـور الديمقـراطي السائد وهو مبني على مقولة الأخوة التي تربط سائر أفـراد هذا الوطن بعضهم الى بعض . ولعـل السبب الآخـر تقني ، وأعني بـذلك التـطور الكبير في تقنيات المواصلات . فنحن الآن أقـرب الى الريف وهو بـالتالي اقرب الينا من خلال الطرق والوسائل السمعية والبصرية كـالتلفزيـون والهاتف والراديو والى ما هنالك ، ففي القرن العشرين انفتحت أبـواب الريف على المدن ونتـج من جراء ذلك اهتمـام كبير بـالريف سرعـان ما تطوّر الى بروز علوم اجتماعية متخصصـة بحياة الريف . وهكـذا انجرّ التأريخ مع سائر العلوم الأخرى وفتح هو الآخر نافـذة له على الريف . وهذه النافذة لا تزال صغيرة حتى الآن إذ لا يوجد إلا عدد قليل نسبياً من المـؤرخين المعـاصرين ممن له اهتمـام متواصـل بتـاريـخ الريف ، وسوف تمر علينـا بضعة عقـود من السنين قبـل أن نبدأ بفهم التـاريخ الريفي فهما صحيحاً .

وإذا شئنا أن نكتب تاريخ الريف علينا أن نطرح جانبـاً العديـد من الخـرافات التي تـأصلت في أذهان أهـل المدن حيـال أهل الريف . فنحن كثيراً ما نراهم من خلال منظار استعلائي أو عدائي أو تبسيطي وكأنهم فصيلة مختلفة من البشر تتميز عنا ببـلاهة في العقـل وتزمت في التفكير ورتابة في نمط الحياة . هذا دلبعاً لا يمنع الكثيرين من النظر الى الريف بمنظار من يحن الى الطبيعة وعندها يبدو لنا الريف وكأنه يمثـل حنيناً الى الحياة البسيطة والهواء الطلق والصحة البدنية . ومهما تكن نظرتنا الى الريف ، أكانت عدائيـة استعلائيـة أم كانت رومـانطيقيـة ، فإنها هي النظرة التي يجب أن نطرحهـا جانبـاً . فتاريـخ الريف وأهله أمـر في غايـة التعقيد . هنـاك مثل شـائع بـين فلاحي سـوريا ولبنـان

وفلسطين : « الأرض تختلف بالشبر » . وهذا المثل يجب أن يدفعنا الى الحذر المستمر فلا نطلق التعميمات والأحكام على الريف اجمالاً من خلال دراستنا لمنطقة واحدة فحسب ولا نقلل من شأن التشعب في طبقات أهل الريف الاجتماعية وعلاقاتها مع بعضها البعض ومع ملكية الأرض عبر الزمن .

يبقى أن نلتفت الى بعض أصناف التأريخ الأخرى في عصرنا الحاضر والتي يجدر بنا أن نتعرض اليها حتى ولو لم نوفها قسطها من البحث . هناك ، مثلا ، التأريخ الاقتصادي والذي هو إحدى ثمرات ذاك اللقاح الهام بين التأريخ والعلوم الاجتماعية الذي أشرنا اليه أعلاه . فالاقتصاد بدأ ينتظم كعلم من العلوم في القرن الثامن عشر مع بروز الصناعة في أوروبا والتحولات الكبرى التي أحدثتها الثورة الصناعية في العلاقات بين أوروبا من جهة وسائر أرجاء العالم من جهة أخرى . وبلغ التأريخ الاقتصادي إحدى ذراه مع كارل ماركس في القرن التاسع عشر الذي قسّم التاريخ ، كما نعلم ، الى فترات خمس تتميز كل منها عن الأخرى بنمط معين من الانتاج . كان هناك أولاً نمط الملكية المشاعية ثم تلاه نمط انتاج العبيد ثم النمط الاقطاعي ثم النمط الرأسمالي ثم النمط الشيوعي (الذي يشكل النمط الاشتراكي مرحلته الأولى) .

هذه النظرية هي إحدى أهم نقاط الانطلاق في التأريخ الاقتصادي الحديث . أقول « نقاط الانطلاق » لأن هذه النظرية لم تبق على حالها طبعا بل تناولتها أيدي المؤرخين ، من الماركسيين وغيرهم ، بالتطوير أو التحريف أو الرفض . ومهما يكن من أمر هذه النظرية ومن التقسيمات والتقسيمات المضادة التي أثارتها (كتاب ولت روستو ، **مراحل النمو الاقتصادي** مثلاً) فقد ازداد اهتمام المؤرخين على اختلاف نزعاتهم السياسية برصد التطورات والتيارات الاقتصادية عبر الزمن . لكن هذا الرصد يصطدم ببعض العقبات الكبرى ، من نظرية

وعملية . ففي المجال النظري ، يختلف علماء الاقتصاد اختلافاً بينا فيما بينهم حول تعريف الاقتصاد السليم أو الأحوال الاقتصادية المثالية في أيامنا هذه : فما بالنا بالأيام الماضية ؟ كذلك ، مهما يكن تعريف الاقتصاد السليم في عصرنا هذا ، فإنه يأخذ بعين الاعتبار أموراً لها صلة وثيقة بالصناعة وهو القطاع الاقتصادي المهيمن في عصرنا . أما في العصور السوالف فإن الصناعة لم تكن لها أبداً مثل هذه الأهمية المعاصرة . إذاً ، حتى ولو توصلنا الى تعريف كاف للاقتصاد السليم المعاصر فنحن لا يمكن لنا أن نأخذ بنفس هذا التعريف فيما يتعلق بالماضي . وهكذا فنحن لا نملك معياراً نظرياً يوضح لنا الفارق الحاسم بين الاقتصاد السليم والاقتصاد السقيم . لذا يصعب جداً على المؤرخ خصوصا للعصور ما قبل الصناعية أن يرصد التقلبات الاقتصادية بدقة واستبحار .

ومن وجهة النظر العملية فإن الأرقام والاحصائيات المتوفرة عن العصور الحديثة تتيح للمؤرخ أن يرصد تقلبات التاريخ الاقتصادية في بعض الدول رصداً شافياً . أما في المجتمعات القديمة أو في مجتمعات القرون الوسطى أو في مجتمعات الدول النامية فإن هذه الأرقام ، إذا وجدت ، كثيراً ما تكون مبعثرة ولا تكفي لاصدار الأحكام القاطعة . وفيما يختص بالتاريخ العربي الاسلامي في العصر الوسيط فإن هذا التبعثر يطال المكان والزمان فنحن نملك معلومات اقتصادية عن بعض البلدان في بعض الفترات فقط . ونعلم في الوقت ذاته أن الأوضاع الاقتصادية ضمن البلد الواحد كثيراً ما كانت متفاوتة بين مدينة وأخرى. وتتردد في الذهن اصداء الكلمات : « الأرض تختلف بالشبر » . لتزيد من حذر المؤرخ الاقتصادي من التعميمات التي يلجأ اليها المؤرخ السياسي بسهولة وتكرار .

نصل أخيراً الى التاريخ الفكري . وهو آخر صنف من أصناف التأريخ الذي سوف نستعرضه ، فإنه يثير بعض المشاكل الخاصة به

والتي قد لا نجدهـا في أصناف التـأريخ الأخـرى . فمن هذه المشـاكل تعـريف الفكر ثم عـلاقة الفكـر بالحياة .هل الأفكـار ثمار تتـدلى فـوق رؤوسنا فنلتقط منها ، لربما كالهواء الذي ننشقه ، ما يلزم للفهم ؟ أم هي شيء آخـر يرتبـط بعمل الأعصـاب في الدماغ البشـري ومن هنـاك بشبكة بشرية واجتماعيـة أوسع أم هي كـلا الأمرين معـاً ؟ أم هي لا هـذا ولا ذاك ؟ بـاختصـار ، مـا تعـريف التـاريـخ الفكـري ومـا هي خصائصه ؟

أقتـرح أن نبدأ بـاستعراض بعض الفـوارق الجلية بـين تاريـخ الفكـر من جهة وأصنـاف التاريـخ الباقيـة من الجهة الأخـرى فلربما يسعفنا فهم هذه الفروق على تحديد خصائص التاريخ الفكري وحقله . أولى هذه الفروق هي مسألة البداية والنهايـة . ففي التاريـخ السياسي مثـلاً ، نقول ان الفتـوحات الاسـلامية بـدأت في سنة كـذا وأن الدولة الأموية سقطت في سنة كذا ، والى ما هنالك . وفي التاريـخ الاقتصادي أيضا نقول : « انهارت بورصة نيويـورك في عام ١٩٢٩ وتبعهـا ركود اقتصـادي كبير طال معـظم أرجاء المعمـورة » أو « ضـرب عبـد الملك النقود بالعربية سنة كذا وخلق بذلك سوقاً اقتصاديـاً دولياً اسـلامياً » أما في حقل تأريخ الأفكار فإن مثل هذه البدايات والنهايات لا يتأتى لها أبداً أن تكون على نفس الدرجة من التحديد أو الوضـوح . متى بدأت فكـرة القوميـة ؟ ومتى نشأ علم الفلسفـة ؟ ومتى انتهى الاعتـزال في تاريخ الفكر العربي الاسلامي ؟ كلها أسئلة لا نجد لها جواباً قـاطعاً ، فنصل الى الاستنتاج أن تاريخ الفكر يتميز أولا بصعوبة تحديد بداياته ونهاياته .

ثم هناك في المكان الثـاني مشكلة تأثـير فكر مـا على فكـر آخر . فبينما نجد في التاريخ السياسي أو الاقتصادي أنه من السهل نسبياً أن نحدد تأثير الحدث الفلاني على الحادثة الفلانية أو النتائج التي خلفهـا حـدث من الأحـداث ، يصعب جـدا علينـا أن نميّـز هـذه التـأثيـرات

ونفصلها في التاريخ الفكري . يقـول الشاعـر بول فـاليري في معـرض حديثه عن مشكلة « التأثير » في الأدب ، مـا يلي : « كثيـراً ما يكتسب العمل (الأدبي) قيمة خـاصة في ذهن الانسـان الآخر ممـا يؤدي الى نتائج خصبة يستحيل التنبؤ بها أو حتى الفحص عنهـا في العديـد من الأحيان ... ففي العلوم ، كما في الآداب ، إذا بحثنا عن مصدر انجـاز ما نجد أن العمل الذي يقوم بـه الانسان يكـرر أو يناقض مـا قام بـه إنسان آخر إذ أنه اما يكرر هذا العمل بلهجة أخـرى أو ينقحه أو يـزيد عليه أو يبسطه أو يحمله من المعاني أكثر مما يجب ، واما يـدحضه أو يقلبه رأسا عـلى عقب أو يهدمـه وينكره . ولكنـه بالرغم من ذلك ، قـد اعتنقـه واستخـدمـه عـلى شكـل غـير مـرئي . فـالنقـائض تخلق من النقائض »[1] .

ويقـول فاليـري أن مشكلة التأثـير هذه هي من أعقـد المشاكـل وأعوصها بالرغم من أهمية فهمها على الوجـه الصحيح في مجـال النقد الأدبي .

ثم هناك في المكان الثالث مشكلة الأحكام الأخلاقية التي يـطلقها المؤرخ على أبطال التاريـخ وأحداثـه . فهذا الرجـل نهض بأمتـه وذاك أودى بها الى التهلكة وهذا نفع البشر بعلمـه وذاك سفك دماءهم . كما يـطلق المؤرخ الأحكـام على الأحـداث وأسبابهـا فيحلو له في الكثير من الأحيان أن يصف عصراً من العصور بالانحـطاط ويصف عصراً آخـر بالازدهار . وهذه الأحكام تدخل في صلب عمل المؤرخ الذي يرمي ليس فقط الى السرد بل الى التفسير والتبرير وإصـدار التقييمات المختلفـة . لكن الفارق هنا بين التاريخ الفكري وأصناف التاريـخ الأخرى يكمن في صعوبة إصدار مثل هذه الأحكام عندما يتصل الأمر بالفنون أو الآداب

---

(١) Paul Valery , « Letter about Mallarmé » quoted in Edward W . Said . **Beginnings** (Baltimore : Johns Hopkins, 1975) p. 15 .

التي هي مادة التاريخ الفكري . فبينما يسهل علينا أن نقول ان الويلات ازدادت في بعض العصور أو نقصت ، لا يسهل علينا أن نعترف بحدوث الويلات أو الكوارث الفكرية ، والتي يبدو وكأنها تخضع لمقاييس تختلف عن مقاييس الأحداث التاريخية الأخرى ، من سياسية أو عسكرية أو اقتصادية أو اجتماعية . وتزداد الأمور تعقيداً عندما نرى أن الفنون والآداب قد تزدهر في بعض العصور التاريخية التي نكون قد حكمنا عليها بالانحطاط في المجال السياسي (القرنين الثالث والرابع للهجرة/ التاسع والعاشر م مثلاً) فنصنفها في العادة بأنها قرون انحطاط سياسي ولكنها قرون ازدهار فكري . وبالإضافة إلى كل هذا ، فان الفنون والآداب تخضع كما يبدو لأحكام تتعلق بالأذواق والأهواء ، فبعض الأعمال الأدبية تستقطب اجماعاً عليها وعلى جودتها لا تنال منه السنون والأجيال فتصبح مع الزمن في مصاف الكتب المنزلة التي تخرج عن دائرة الزمن والتاريخ ، وتخرج بذا عن دائرة الأحكام .

ثم هناك في المكان الرابع مشكلة العقول والنفوس البشرية التي نقول عنها أنها هي التي تولد الفكر الانساني . إذ بينما نرى أن الازدهار أو الانحطاط هما الحكمان الغالبان من بين الأحكام التأريخية السياسية أو الاقتصادية مثلا ، نرى أن الحكم على أدب عصر بكامله بالازدهار أو الانحطاط أمر يدعو الى الحذر الشديد ، فأعمال البشر ومعاملاتهم تخضع بسهولة نسبية الى مقاييس الازدهار أو الانحطاط والى الأحكام الأخلاقية ، صائبة كانت هذه المقاييس أم خاطئة . أما فيما يختص بالعقل البشري ، فلا يوجد أي دليل على الاطلاق يحملنا على الاعتقاد أن كمية العقل أو درجة الذكاء تزداد أو تنقص بين جيل وآخر فنسبة الذكاء تبدو ثابتة عبر الأجيال . وهذاالأمر يدعو على ما أعتقد الى الاحتراز من تصنيف العصور الفكرية المختلفة الى عصور منحطة وأخرى مزدهرة كما يدعو الى طرح المقارنات بين العصور

الفكرية جانباً والى الأخذ بكل عصر على حدة والى فهمه بالنسبة الى عصره بالذات لا الى العصور الأخرى . فمقادير الذكاء فيها متساوية والجيد منها يبقى جيداً في كل زمان ومكان وبنسبة اخالها لا تتبدل . وحول مؤرخي العلوم في يومنا هذا يقول المفكر الأميركي المعاصر توماس كيون في كتابه « بُنية الثورات العلمية » ما يلي : « انهم لا يبحثون ، على سبيل المثال ، عن العلاقة بين آراء غاليليو والعلم الحديث بل عن العلاقة بين آرائه وآراء جيله ، أي آراء أساتذته ومعاصريه ومن جاء بعده مباشرة »(١) .

وهذه الفروقات بين التاريخ الفكري وبقية الأصناف التاريخية الأخرى تضع الفكر في مرتبة خاصة بين « الأعمال » التي يقوم بها الانسان والتي يتصدى المؤرخ لتقييمها ووضعها في نصابها التاريخي الصحيح . فالفكر الانساني كما رأينا لا ينصاع للمؤرخ كما ينصاع العمل ، إذ يصعب تحديد بداياته ونهاياته ويصعب رصد مؤثراته وتأثيراته ويصعب الحكم له أو عليه ويصعب قياس ازدياده ونقصانه . وعندما نبحث عن تعريف للتاريخ الفكري ، نجد أنفسنا وكأننا قد وضعنا قدماً على الأرض وأخرى في السماء . فلربما كان من الأفيد أن لا نعطي هنا تعريفاً مقتضباً للتاريخ الفكري بل أن نلتفت الى المشكلة الأهم التي يثيرها هذا التاريخ في عالمنا العربي الاسلامي المعاصر لعلنا نجد في درس هذه المشكلة بعض ما نبتغيه من التعريف .

والمشكلة التي اعنيها هي ما يسمى الان مشكلة « التراث » . والتراث في العقد الاخير من الزمن قد اكتسب اهمية متعاظمة اذ تكتب في موضوعه عشرات الكتب والمقالات سنويا . ونحن لا نطمع ان نوفيه قسطه اللائق من البحث في هذا المقام بل نكتفي بان نجد فيه امثولة

---

(١) راجع ، Thomas S. Kuhn, The Structure of Scientific Revolutions (Chicago : The University of Chicago Press, 1962) , p.3.

حية على صنف من اصناف التاريخ ، وهو التاريخ الفكري ، والذي هو محط اهتمامنا المباشر . فالبحث في التراث يعطينا على ما اظن فرصة مفيدة للبحث في تعريف تاريخ الفكر ومشاكله بشكل عام .

إذا عرفنا التراث بأنه العمران العربي الاسلامي أو بأنه نتاج الفنون والاداب العربية ، يجدر بنا ان نعترف اولا انه نوع من انواع الماضي لذا فانه صنف من اصناف التاريخ . لكن التراث يرتبط بنا بخيوط عديدة بعضها واه وبعضها وثيق فهو من جهة امر قد انتهى ومن جهة ثانية علاقة مستمرة. هو شيء وهو ذكرى في الوقت نفسه ، هو حدث وهو اتصال ، هو ماضٍ وهو حاضر . ويقسم الباحثون المعاصرون في التراث في رأيي الى قسمين: فالبعض منهم يؤكد على تاريخية التراث والبعض الاخر على عصريته . فبعضهم يحبذون الابتعاد عنه بغية « امتلاكه » او تخطيه وبعضهم يحبذون الدنو منه لالتقاط ما فيه من الثمرات المعاصرة « كعقلانيته » او « تقدميته»[1]. كيف نتعامل معه ؟ كيف نستوعبه ؟ هذه هي الامور التي تثير في نفوسنا اليوم تلك المشاعر القوية وذلك الفيض من الدراسات التي تتسم جميعهاتقريبا بنبرة انفعالية واضحة . لقد اصبح البحث في التراث مرادفا للبحث عن هويتنا القومية او الدينية ، او عن ايديولوجيتنا المنشودة .

وقبل ان ندلي بدلونا في هذا الخضم الفكري يجدر بنا ان ننتبه الى بعض المقدمات التي لا بد لنا من التذكير بها . اولا ، ان مشكلة التراث في يومنا الحاضر ليست مشكلة حديثة بل هي مشكلة نشأت مع تبلور الحضارة العربية الاسلامية واتخذت اشكالا واشكاليات مختلفة عبر العصور . فالسؤال الذي طرحه مؤرخو القرن الثالث والرابع والخامس ، اي علاقة الاسلام بما سبقه من حضارات ، هو سؤال

---

(١) يجد القارىء تفصيلاً لهذه الآراء في مقال صدر لي بعنوان « نحن ثلاث قبائل » في النهار العربي والدولي ، ١٩ آب ، ١٩٧٨ .

تراثي ، هو بحث في التراث،اذ انه يختص بتحديد علاقة فكرية بين حاضر وماض . فالبحث في التراث على اشكاله المختلفة بحث تتردد اصداؤه عبر التاريخ العربي الاسلامي وفي ظني انه يكتسب في كل قرن تقريبا حرارة وسخونة تجعله يستأثر باذهان العديد من المفكرين . ولا مجال هنا للدخول في اسباب فورات البحث في التراث لكننا يجب ان نتذكر على الدوام ان مشكلة التراث بعينها لها تراثها الخاص . ثانياً ، يجدر بنا ان نعترف ان مؤرخي العالم الثالث على وجه العموم ، ومنهم مؤرخو العالم العربي الاسلامي ، مكبّلون بتراثهم اكثر مما هي الحال عند مؤرخي اوروبا مثلا . ولنأخذ مثالا على ذلك . اذا شاء احد المؤرخين في المانيا ان يكرس حياته العلمية لدراسة مدينة نورمبرغ في القرن الثاني عشر ، فله ان يفعل ذلك بدون ان يلقى من مجتمعه أي ضغط يذكر لتبرير العلاقة بين مادة دراسته وبين المانيا المعاصرة . اما المؤرخ الاسيوي او الافريقي او اللاتيني الاميركي فاظن ان الضغط الاجتماعي الذي يمارس عليه لتبرير العلاقة بين الوسيط والحديث في تاريخ بلاده يزيد كثيرا عما هي الحال عند المؤرخ الاوروبي . العالم الثالث مرهق بتراثه اكثر من العوالم الاخرى . وانا لا اقول هذا في سبيل المدح او الذم بل ارى ان هذه الحقيقة يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار كاحدى المشاكل المتعلقة بالتراث او بالتاريخ الفكري على وجه التحديد .

ما العمل اذا ؟ اذا فصلنا التراث عنا كليا وقلنا بوجوب دراسته على انه صنف من اصناف التاريخ فحسب ، فما هي فائدته ؟ اي ، اذا اخذنا بتحليل توماس كيون المشار اليه اعلاه ، وجب علينا ان ندرسه لا بالنسبة الينا اليوم بل بالنسبة الى عصره هو . ولكن اذا فعلنا هذا ، فما الفائدة منه ؟ اما اذا اتبعنا الاسلوب اللاتاريخي وطفقنا نلتقط منه ما نحب وننبذ منه ما نكره ، نأخذ من ابن رشد عقلانيته ومن المعتزلة قولها بالعدل والاستطاعة ومن ابي ذر

« اشتراكيته » فنحن ندلل بذلك على أهوائنا الخاصة لا على التراث ككل . فالمفكر الذي يبحث عن « الديمقراطية » في التراث يخبرنا عن نفسه اكثر مما يخبرنا عن التراث . والمفكر الذي يبحث عن « العقلانية » في التراث يفترض ان « العقلانية » شيء واضح ومفهوم لدى الجميع . وعلى كل حال ، فان بعض الكلمات المحببة كالديمقراطية او العقلانية او الحرية لا تحظى ابدا عند الفلاسفة والمفكرين المعاصرين ولا القدماء بتعريفات يجمع عليهاجمهورهم، فلا يصح اذا ان نعتبرها مُثُلا افلاطونية ازلية تنير لنا الطريق في كافة الازمنة والبقاع . فنحن نندفع نحو التراث كما لو كان دينا من الاديان السماوية فالبعض يحاول عقلنته والبعض الآخر يمجده والخطأ واحد في كلتا الحالتين اذ ان المطلوب فوق كل شيء هو فهمه على الوجه الاصح .

رأيي باختصار ان التراث هو التاريخ الفكري العربي الاسلامي بعينه . ورأيي ايضا ان واجبنا الاول هو فهمه في سياقه التاريخي الدقيق والمفصل . والاجيال الفكرية تبدو لي انها تتساوى في المسافة مع الحقيقة ، فلا يصح ان نقسم تاريخ الفكر الانساني كما يفعل البعض الى زمن الخرافة ثم زمن الدين ثم زمن العلم . فالخرافة والدين والعلم تتساوى في الكمية بين جيل واخر . فقد نبذنا خرافات الماضي لكننا استعضنا عنها بخرافات عصرية ، ونبذنا بعض أشكال التفكير الديني الماضي لكننا استعضنا عنها بأشكال جديدة ، ونبذنا علوم الماضي لكننا استبدلناها بعلوم حديثة . لكن ، هل اقتربنا بشكل مطلق الى الحقيقة ؟ ام هل تبقى كمية الجهل هي هي في كل ميادين الفكر على مر العصور ؟ هذه الاسئلة ، على ما اعتقد ، هي من الامور الجديرة بالاعتبار عندما ننوي ان ندرس التراث.كتاريخ فكري لاكوحي منزل ولا كادغال نتلمس فيها طريق « الحقيقة » .

وهناك بعض الاسباب الوجيهة الاخرى التي تحملنا على ما

اعتقد على التعامل مع التراث كتاريخ فكري . فالمخطوطات هي من اهم مواد التراث . لكن المخطوطات العربيـة الاسلاميـة لا تزال مبعثـرة في سائر ارجاء المعمورة.ويقدر بعض الخبراء ان هنـاك ما يقـارب من ربع مليون مخطوطة لا تزال مجهولة المحتوى تماما ، وذلك في مكتبات تركيا وايـران وغيرهـا من البلدان ، قد يكفي نشر واحدة منها فقـط الى قلب معلوماتنا رأسا على عقب في حقـل من الحقول الادبيـة او التاريخيـة كيف نجرؤ اذا ان نطلق الاحكام والتعميمات على التراث عنـدما يكـون هذا الجزء الضخم من مخطوطاته لا يزال قابعـا في الظلمات ؟ لا بـديل في مثل هذه الاحوال من التعامل معه كتـاريخ فكـري ندرسـه بكثير من التأني والحذر ، ندرسه في بيئاته الاجتماعية المختلفة ، ندرسه كاجوبة فكرية متعددة على مشـاكل تـاريخية متعـددة ، نفهمة عـلى ضوء علوم عصرنا وليس لمصلحة علوم عصرنا او لخدمة اديولوجياتنا المعاصرة .

ولقائل ان يقول : « ولكن الم تقل لنا قبل قليل ان العالم الثالث مكبّـل بتراثـه ؟ التراث اذا ليس مجـرد ماض فحسب اي ليس مجـرد تاريخ بل هو ايضا حاضر يفعل فعله فينا في يومنا هذا ، وقد اتيت انت على ذكر الضغوط الاجتماعية التي يخضع لها مؤرخو العالم الثالث . كما اننا اذا درسناه بالنسبةلعصوره المختلفة فما الفائدة منه ؟ » هذه على ما يبدو لي اهم المعضلات التي يواجهها كل من يدعو الى فهم التراث كتاريخ فكري . وسأحاول فيما يلي ان تكون الاجابة عليها نوعا من الخلاصة المقتضبة لهذا الباب وللباب الذي سبقه .

اذا افترضنا وجود التكبيل فيجب ان نفتـرض في الوقت ذاته ان اي تكبيـل للفكـر او النفس مهمـا كـان مصـدره هـو عـائق يجب ان نتخطاه ، هو تقوقع وانعزال يجب ان نخرج منه ، اذا اردنا للفكر حرية التجول والاستمرار . وبالاضافة الى ذلك ، نحن عرضة للضغوط الاجتماعية لتفسير علاقة الماضي بالحاضر لكني أرى أن الجواب على هذا الضغوط لا يكمن في تحويل الضغط عن

المؤرخين والى التراث نفسه (تمجيدا او تنقيبا) بل في تأريخه على الوجه الصحيح . لكن ما الفائدة من هذا التأريخ وهذا الفهم ؟ اليس الفهم للفهم نوعاً من الترف الفكري الذي لا طاقة لنا على احتماله او نوعاً من المثالية التي تتكفىء في البروج العاجية ؟ الجواب ان المؤرخ له كاي فرد آخر في المجتمع حقوق وواجبات . فمن حق المجتمع عليه ان يطالبه بالافادة لكن من واجبات المؤرخ نحو المجتمع ان لا يتخطى حدود صناعته اذا توخى افادة مجتمعه على الوجه السليم . وفيما يتعلق بالتاريخ الفكري على وجه الخصوص ، والتراث في رأيي يمثل الوجه العربي الاسلامي لهذا التاريخ ، فان فهمه على الوجه السليم هو ابعد ما يكون عن الترف الفكري . فان وضع التراث في نصابه وفهمه على ضوء علوم عصرنا المتزايدة امر في غاية الصعوبة ، نجني منه في النهاية تفهما ادق لمشاكل كبرى كالتسلسل والتزمين والتأثير وربط الاسباب بالمسببات والتطور والاصالة والانقطاع والاتصال واشكال التفاعل بين الافكار والمجتمعات في تغيراتها عبر العصور . هذه باختصار هي خصائص التاريخ الفكري ومشاكله الرئيسية ومكانة التراث فيه . ولنا عودة الى بعض هذه الملاحظات في الابواب التالية .

الباب الرابع ■■■

المدارس التاريخية المعاصرة

يصعب علينا ان نقسم المدارس التاريخية الكبرى في يومنا الحاضر كما نقسّم المدارس الفلسفية او الادبية مثلا . فقد سبق واشرت في الباب الاول الى ان اغلبية المؤرخين لا يلتفتون الى الاسس او المبادىء النظرية التي يرتكز اليها علمهم بل انهم يدوّنون الاحداث التاريخية ويفسرونها على ضوء ما توحي به مادتهم لا استنادا الى مبادىء او نظريات فلسفية او قوانين طبيعية او غير طبيعية . هذا النهج اللانظري الذي ينهجه اليوم معظم المؤرخين يكاد يكون نفس المأخذ الذي اخذه ابن خلدون على مؤرخي عصره حين اتهمهم « بالجهل بطبائع الاحوال في العمران » والجهل بالسنن التي تميز الحق عن الباطل في الاخبار . ولعل السبب الاهم من وراء هذا الابتعاد عن النظريات هو أن الحدث الفرد الذي لا يمكن لنا أن نستعيده أو نخلقه من جديد يبقى محط اهتمام جمهور المؤرخين . فالمؤرخ ، كما رأينا أعلاه ، يسعى لجمع الحوادث المنفردة ليصيغ منها السلسلة التي تربط تاريخه ، تماما كالصائغ الذي يربط اللالىء بعضها الى بعض ليصنع العقد . والحدث الفرد عند المؤرخ هو كاللؤلؤة عند الصائغ ، كل واحدة منها لها مكانها وحجمها الضروري والمناسب في الصف . فاذا ما اكتمل الصف ، شعر المؤرخ ان مهمته قد انتهت . وهو كالصائغ لا يلتفت في العادة الى شكل هذا الصف بعد ان ينعقد ويوضع جانبا : هل

هو حلزوني ام مستقيم او مستدير ؟ هذه الامور تترك لواجهات المحلات التجارية واذواق المشترين . المؤرخ اذا عليه ان يفرز الاحداث ، بل ان عملية الفرز هذه هي اولى واجباته . يختمر في ذهنه موضوع ما فيبدأ اولا وقبل كل شيء فينثر الموضوع ويبعثره قبل ان يلتقطه ويجمعه فيما بعد . وهذا الاهتمام الرئيسي بالخاص والفريد والفذ والاستثنائي دون الالتفات الى العام والمتشابه والمتقابل والنظري هو الذي يجعل من الصعب علينا ان نرصد مناهج المدارس التأريخية الكبرى .

لنبدأ ببعض المقدمات العامة . ان التأريخ في القرن العشرين صنعة من بين الصناعات الاخرى والتي تحتل اليوم كما احتلت بالامس دربا من دروب اسواق الحضارات الانسانية . هذا التعريف المبدئي للتأريخ على انه صنعة والذي يستلهم من ابن خلدون ينقل التأريخ من الحقل (كأن نقول مثلا : « التأريخ حقل من حقول المعرفة ») ويجعله حرفة ؛ انه يصنّع التأريخ ، او ، اذا شئتم ، انه ينقله من البعد المسطح الى البعد المكعب . وتصنيع التأريخ مع باقي « حقول » المعرفة من شأنه ان يجعلنا اكثر التفاتا وانتباها الى تشابك المعارف بالحرف وتشابكهما معا بالمال والسلطان . التأريخ اذا جزء من شبكة اكبر ولكي نفهم مدارسه علينا ان نفهم شبكته هذه ، على الاقل في اطارها الاعم والاوسع ، وفي ابعادها المختلفة[1] .

ما هي نقاط التماس التي تفصل المدارس التأريخية بعضها عن بعض والتي يحتدم عندها الصراع بين المؤرخين ؟ اولى هذه النقاط على ما اعتقد هي مشكلة مسيرة التاريخ فبعض المؤرخين يرى ان التاريخ

---

(١) يقول التوسير : « سوف يأتي اليوم الذي ... نلتفت فيه الى صياغةٍ نظريةٍ حول تاريخ إنتاج المعارف » . أنظر :

Louis Althusser, **Politics and History** (London : NLB, 1972), p. 166 .

يسير بوتيـرة معينة والى هـدف معين والبعض يـرى انه يسـير بوتيـرة معينة ولكن لا الى هدف معين والبعض يرى انـه يسير بـلا وتيرة وبـلا هـدف[١] . ونقطة التمـاس الثانيـة هي مشكلة **البرهـان** في التاريـخ . فبعض المؤرخين يرى ان البرهـان التاريخي لا يختلف عن البـرهان في الريـاضيات او العلوم الطبيعيـة اما البعض الاخـر فيرى ان للتـاريـخ « براهينه » الخاصة والتي تختلف اختلافا بينا عن البراهين العلمية ، اذ ان مصداقية العمل التاريخي تستمـد من امور عـديدة : من خيـال المؤرخ واسلوبه الادبي وخبرته في الحيـاة والتي لا دخل لهـا في زعمهم بالعلم الطبيعي وبمصداقيته . ولعل في استعراض بعض هذه المشـاكل والنقاط واعطاء الامثلة عليها ما يفيـدنا في الالمـام ببعض أهم المدارس التاريخية المعاصرة .

لنبدأ اولا باصحاب الوتيرة والهدف . ان نظرية المادية التاريخية كما طورها ماركس وانغلز في القرن الماضي لا تزال الى اليـوم تسود تلك الفئة من المؤرخين المعاصرين الذين يقولون ان التاريخ يسير على وتيرة خاصة ونحو هدف معين . واذا نثرنا عيدان هذه النظرية (اي الماديـة التاريخية) نجدها تحتوي على منظومات من الالفاظ تشكل بمجمـوعها « لغـة » خاصـة تعلمنا وتيـرة التاريـخ وهدفـه . فهنـاك مثـلا القـوى الانتاجية والعـلاقات الانتـاجية والطبقـة والاستغلال الطبقي . وهنـاك المراحل التـاريخية المختلفـة التي تكلمنا عنهـا سابقـا . وهناك البنيـة التحتية والبنية الفوقية في التاريخ وهناك نظرة الى الوجود ترى ان فهم اي شيء كـان يقتضي منا فهم تـاريخه (وهـو ما يسمى عـادة النـظرة التاريخانية[٢]) . وهذه الامور تنضوي كلهـا تحت وتيرة الديـالكتيكية المـاديـة والتي تـرى ان النشـوء والارتقـاء يتم عبـر التنـاقض بـين

---

(١) لا نجد بين المؤرخين من يقول أن التاريخ يسير بلا وتيرة نحـو هدف معـين إذ أن القول بالهدف يستلزم عادة طرح الوتيرة كبرهان على التقدم نحو الهدف .

(٢) كما في جملة ماركس الشهيرة « لا نعرف الا علماً وحيداً هو علم التاريخ » .

الاضداد . اما الهدف فهو (عند انغلز على الاقل) الوصول الى مرحلة تاريخية تتلاشى فيها الدولة والطبقات ويتلاشى كذلك الاستغلال البشري . ولسنا هنا في مجال الخوض في تفاصيل هذه النظرية اذ انها تقودنا حكما الى مشاكل فلسفية تقع خارج نطاق بحثنا الحاضر . يهمني الآن ان اؤكد ان هذه النظرية وليدة ألقرن التاسع عشر الاوروبي الذي شهد فيما شهد نظرية النشوء والارتقاء عند داروين وتعاظم الايمان بالعلم الطبيعي كمفتاح للحقيقة الاجتماعية ، واخيرا لا آخرا استخدام المعرفة كوسيلة للسيطرة على العالم غير الاوروبي .

وقد منحت هذه النظرية زخما هائلا للدراسات التاريخية ، يذكرنا بالزخم الذي منحه الدين من قبل لمثل هذه الدراسات . واذا اخذنا جزءا واحدا فقط من هذه النظرية وهو مفهوم البنية التحتية والبنية الفوقية ، وجدنا انه يشبه محاولات المؤرخين المتدينين لايجاد مغزى للتاريخ كثيرا ما يبنى على الفصل بين الله كمحرك التاريخ الاول (= البنية التحتية) وبين العالم المخلوق الذي يشكل تاريخه رمزا (= البنية الفوقية) لهذه التحركات . هناك اذا تعاطف ملحوظ (ومعروف) بين الماركسية الكلاسيكية والنظرة الدينية في التفسير التاريخي وقد ادى ذلك الامر في كلتا الحالتين الى فتح افاق جديدة ومثمرة في التأريخ . يقول التوسير : « فتح ماركس قارة التاريخ »[١] . ويضيف ان قارات المعرفة لا تكون خالية لكن العلوم « القاريّة » الجديدة تدخل على هذه القارات فتحدث فيها شروخاً على صعيد الحقل والمعرفة معا .

واذا أخذنا بتشبيهات التوسير الجغرافية نجد ان المادية التاريخية نفسها قد اصابتها الشروخ ،[٢] اذ ان ماركسية ماركس

---

(١) التوسير : المصدر والصفحة السابقين .

(٢) يجد القارىء تفصيلاً هاماً لهذه الشروخ عند : Jürgen Habermas, **Communication and the Evolution of Society** (Boston : Beacon Press, 1979), pp. 130-177 .

ذاته مرّت في مــراحل مختلفــة ، كما ان بعض « عيــدان » النظريــة قد اخضعت من قبل عدة اجيال من الماركسيين الى استجوابات وتساؤلات وتحليلات شتى . ما هي بالضبط علاقات الانتــاج ؟ وما هــو بالضبـط تعـريف « التحتي » و « الفوقي » والعــلاقة بينهمــا[١] ؟ ما هــو نمـط الانتاج ؟ وهل يمكن أن نشهد في زمن واحد أنماطاً متعددة من الانتاج ؟ وماذا حل « بتنبؤات » هذه النظرية بالنسبة الى مستقبل العالم الرأسمالي ؟ هذهالاسئلة وغيرها كثيرة لاتعنينا هنا الا بمقدار ما تذكّرنا بمنعطفات تاريخ التأريــخ الماركسي . وفي رأيي ان هــذا التاريـخ يوحي بان اهتمام المؤرخين الماركسيين في يومنا هذا قد انحصر بوتيـرة التاريخ دون هــدفه[٢] . وبكــلام آخر ، فــان المؤرخــين الماركسيــين قد اقتربوا كثيرا من ابن خلدون ، ليس فقط فيما يتعلق بالبحث عن وتيرة الاحداث بل وفي ارائهم عن الفكر كنمط من الانتاج (الفكر كصنعــة) والسيطرة[٣] .

وقبل أن ننتقل الى مدارس تأريخية أخرى ، يجــدر بنا أن نلتفت ولو بسرعة الى تأثير الفكر الماركسي على التأريخ العربي الاســلامي . لا نزال مع الأسف نفتقر الى تاريــخ عربي إســلامي كتب من وجهة نـظر ماركسية والسبب على ما اعتقد هو أن البحث في هــذا الحقل يستـدعي الالمــام الشامــل والدقيق بحقلين مختلفين من حقــول المعرفــة : التراث

(١) انــظر مــثــلاً : Theodor Adorno, Negative Dialectics (London : Routledge, 1973) , pp. 354, 358 .

(٢) لعل لينين آخر من اهتم جدياً بتعريف هــدف التاريــخ في كلامــه عن « الاستعمار كـآخر مرحلة من مراحل الرأسمالية » .

(٣) أنظر مثلاً آراء غرامشي حول المثقفين في :

Antonio Gramsci, The Modern Prince (New York : International Publishers, 1978), pp. 58-75, 118-125 .

وقد ترجم هذا الكتاب الى اللغة العربية تحت عنوان **الأمير الحديث** (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧٠) .

الماركسي والتراث الاسلامي ، وهذا الأمر لا يتسنى الا لندرة نادرة من الباحثين . ولعل أبرز المستشرقين الماركسيين في الزمن الحاضر هما كلود كاهن ومكسيم رودنسون . لكن الأول ، وهو من رواد التاريخ الاقتصادي العربي الاسلامي ، لا يوظف ماركسيته في تواريخه بشكل منتظم أما الثاني فإن المحاولة التي قام بها لاعطاء تفسير ماركسي للسيرة النبوية لم تصب الا نجاحاً محدوداً فجاء كتابه فرويدياً أكثر مما هو ماركسي[1] . أما بين الكتاب العرب فإن المحاولات في هذا المضمار تكاد تكون منحصرة في مجال التاريخ الفكري أو التراث . وهذه المحاولات في رأيي لا تزال تشوبها شوائب عديدة ليست أقلها سطحية الالمام بالتراث الماركسي ، وتطبيقه بصورة عشوائية و« سلفية » ، واستبعاد الحقائق التاريخية التي لا تتناسب مع النظرية ، وسكب التاريخ في قوالب من الألفاظ (« الأقطاع » ، « البرجوازية ») التي يجب أن تحدد من جديد استناداً الى مادة التاريخ العربي لا الأوروبي .

أما المنحى الثاني عند المؤرخين ، أي أولئك الذين يقولون ان التاريخ يسير بوتيرة معينة ولكن لا الى هدف معين ، فلعل مدرسة « الحوليات » (Annales)الفرنسية المعاصرة هي أهم ممثل لذلك المنحى . وقبل أن نبحث في خصائص هذه المدرسة لعل من المفيد لنا أن نبحث قليلاً في خلفياتها . أولى هذه الخلفيات على ما أعتقد هو الاهتمام الذي بدأ عند بعض مؤرخي أوروبا عند نهاية الحرب العالمية الأولى بتاريخ التفاعل بين أوروبا والعالم ، بعد فترة قرن من الزمن تقريباً كان اهتمام المؤرخين فيها منصباً على أوروبا نفسها . فبعد الحرب العالمية الأولى ، « اكتشفت » أوروبا التاريخ العالمي من

---

(١) انظر : Maxime Rodinson, **Mohammed** (London: Allen Lane, 1971).

جـديـد[1] . وقـد كـان في طليعـة هـؤلاء المـؤرخـين الألمـاني شبنغلر والبـريطاني تـوينبي . ثـاني هـذه الخلفيـات هي تقسيم التـاريـخ الى « شرائح مكانية » (Spatial cross - sections) كما يسميها تـوينبي ، أي الى تاريخ مقارن ومتزامن يبحث لا عن تسلسل تاريخي ضمن أمـة معينة بل عن وحدات زمنية تربط أمما مختلفة في منظومة من الأحـداث يـطلق تـوينبي عليهـا اسم « مجتمعـات » أو « حضـارات » ، وهـذه الوحدات هي مادة التاريخ الحقيقيـة لا الأحداث المنفـردة المتسلسلة . ثـالث هـذه الخلفيـات هي المحـاولة التي قـام بهـا شبنغلر وتـوينبي لاستخدام مواد من التاريخ المقارن لصياغة قوانين أو ما يشبه القوانين تحـدد التقدم والانحـطاط في الحضارات المختلفة ، أو تقـرر أشكـال التفاعل بينهـا . رابع هـذه الخلفيات هي نشـوء « لغة » خـاصة عنـد هؤلاء المؤرخين ، يستعملها شبنغلر بسخـاء وتوينبي من حـين الى آخر (ويستعملها ، من بين المستشرقين ، الأميركي هودجسـن[2]) . وهذه « اللغة » تواكب بالطبع المحاولات المبذولة لايجاد شرائح أو منظومـات من الأحداث أو القوانين المقارنة . آخر هذه الخلفيات هي الاستخـدام المكثّف للعلوم الاجتماعية والبشرية والجغرافية الموازية للتاريخ .

إذا ، وفي مناخ أوروبا بعد الحرب العالمية الأولى ، ولدت مدرسة « الحوليات » وكان أحد أهم مؤسسيها الفرنسي مارك بلوك . وتمحورت هذه المدرسة حول مجلة « حـوليات » والتي لا تـزال تصدر الى اليـوم تحت رعاية أهم ممثل معاصر لهـذه المدرسـة التأريخيـة وهو الفـرنسي

---

(١) انـظر مثلاً : Oswald Spengler, **The Decline of the West** (New York : Knopf, 1939) , 2:38 .

واكتشفت أيضا فداحة جهلها بهذا التاريخ . لكن علينا أن لا ننسى ازديـاد الانعزاليـة أيضا عند قسم كبير من المؤرخين وسوف نتطرق اليهم لاحقاً .

(٢) انــظر : M.G.S. Hodgson, **The Venture of Islam** (Chicago : The University of Chicago Press, 1974), 1:45-67 .

فرنان بروديل . ولعل أول ما يسترعي الانتباه في هـذه المدرسـة اسمها الغريب فالحوليات هو ذاك النمط من التأريخ الذي تحدثنا عنـه في باب سابق والذي يدرج حـوادث الأيام عـلى السنين كـالطبري وابن الأثـير وكالعديد من مؤرخي بيـزنطة ومؤرخي أوروبا في العصـور الوسطى . والغـرابة هي أن أسلوب هـذه المـدرسـة أبعـد مـا يكـون عن أسلوب الحوليات . أسلوب الحوليات عامودي أما أسلوب مدرسة الحوليات فهو أفقي . ماذا نعني بالأفقي والعامودي ومـا هي باختصـار تعاليم هـذه المـدرسة ؟ إذا افتـرضنا أن التـاريخ نـوع من « القصة » المتسلسلة حيث تتدرج الأحداث « عمودياً » على درج التاريـخ ، ويتدرج المـؤرخ وراءهـا التقاطاً لتـاريخ أمـة ما أو فكـرة ما أو مـؤسسـة مـا والى مـا هنالك ، فإن مؤرخي هذه المدرسة يقتطعون قطعة من التاريخ ، ثلاثمئة أو أربعمئة سنة مثلاً ، ويمخرونها جيئة وذهاباً كالصيادين في البحر ، يلتقطون كل ما يزخر بها من صيـد . بكلام آخـر ، إنهم لا يلتفتون في العادة الى التسلسل الزمني بل يحاولون إعطاء تقرير شامـل أو صورة كاملة عن فترة معينة . فهم يكتبون عن الخبز والقمح وعادات الطعام . ويكتبـون عن البحار وليس فقـط عن اليـابسـة . ويصفـون الطواعـين والأحوال الصحية وطبقات السكان في المدن والريف ويبحثون في المناجم والمعادن الثمينة ويـدخلون الى البيوت والى عـالم الزينة والمـلابس والى عوالم الاقتصاد والصناعة والزراعـة . هذه جميعهـا تتداخـل وتتمازج مـع عالم الأحـداث السياسيـة فينتج عن ذلك مـا قـد نسميـه أسلوب الشبكة الذي تنتهجه مدرسة الحوليات .

هذا الأسلوب الصحفي ، بالمعنى الانطباعي المباشر ، هو ما يميز مؤرخي مدرسة الحوليات . فالمـراد هو « تغـطية » فتـرات بكاملهـا لا التقـاط بعض الخيوط وسحبهـا من فترة الى أخـرى . أمـا الأحـداث العـظام والمنعطفـات التاريخيـة التي تشكل المـادة الرئيسيـة والعمـود الفقري في معظم كتب التـاريخ فـإن مدرسـة الحوليـات تقلل كثيراً من

سرعة وتيـرتها[١] . وتختفي الأحـداث ومفترقـات الطرق وتحل محلهـا كلمـات أخرى « كـالايقاع » و « المـد والجـزر » ولعـل أجملهـا كلمـة « التسمّع » (Auscultation) كما في النص الآتي لبـروديل : « لنبـدأ بكلمة تحذير . عند البحث عن نشوء الأمبراطوريات وزوالها يجـدر بنا أن نراقب معدل نمـوها بـدقة ولا نلتفت الى الاغـراء الكامن في ادخـال الزمان بعضه ببعض أو اكتشاف بذور العظمة في دولة نعلم أنها سوف تكون عظيمة أو التنبؤ بالانهيار في أمبراطورية نعلم أنها سوف تنهـار . ان حيـاة الأمبراطوريـات لاتقـاس بـالأحداث بـل بالتشخيص الدقيق وفحص الصدر بالتسمع »[٢] . هذه اللغة تجعل المؤرخ أشبه بـالطبيب الذي ينصت الى نبض التـاريخ (أو بـالصحفي الذي يكتب التقـاريـر الانطباعية) راصداً التموجات البشـرية والطبيعيـة وعلى أوسـع رقعة جغـرافية ممكنـة . لذا فإن مـدرسـة الحـوليـات تنـادي الى التـاريـخ المقارن[٣] ، الذي هو جزء من النظرة الأفقية الى التاريخ .

وقبـل أن ننتقل الى المـدرسـة التـاريخيـة الثـالثـة هنـاك بعض الملاحظات حول مدرسة الحوليات . هذه النـظرة الأفقية وهـذا الرصد لوتيـرة التاريـخ يحملان في طيـاتهما انفتـاحاً واسعـاً جداً عـلى العلوم الاجتماعية . لكن بالرغم من الاتساع العظيم والممتد في الأفق التاريخي فـإن مدرسـة الحوليـات تقع في نهـاية الأمـر في خـطر طمس التمييـز

---

(١) انظر مثلاً ، وفي فصل شيق عن هذا الموضوع : Fernand Braudel, **The Mediterranean and the Mediterranean World** (New York: Harper Colophon, 1976) 2:773.

وقارن بالجملة الآتية : « نحن المؤرخون معرضون لخطر تسريع الأحداث » في :

Fernand Braudel, **Capitalism and Material Life** (New York : Harper Colophon, 1973), p.53.

(٢) انظر : **Braudel, The Mediterranean. 2:661** .

(٣) انـظر مثلاً نـداء مـارك بلوك في : Marc Bloch, **Feudal Society** (London : Routledge Paperback, 1971) , 2:446-47 .

الواضح بين الهام والأكثر أهمية في التاريخ . فعندما تتلاشى المنعطفات وتحل محلها التموجات يصعب على المؤرخ فرز الأحداث وتقييمها .

أما المنحى الثالث عند المؤرخين ، أي أولئك الذين يقولون أن التاريخ يسير بلا وتيرة وبلا هدف ، فلعل المدرسة الأنكلوسكسونية (أي الأوروبية الشمالية والأميركية) المعاصرة هي أهم ممثل لذلك المنحى . وفيما يتعلق بخلفيات هذه المدرسة فلعل أولى هذه الخلفيات وأهمها انحسار التيار الفلسفي المثالي المتمثل بهيغل وتلامذته وبروز الفلسفة اللغوية على أيدي برتراند رسل وفيتغنشتاين وغيرهما. لقد مزقت هذه الفلسفة اللغوية ما اعتبرته غشاء الضباب الذي يلف الفلسفة المثالية بتركيزها على قواعد اللغة القاموسية والرياضية والنحوية وبرصدها الدقيق لمعاني الألفاظ ودلالاتها ومواقعها في الجمل . (ولعل كتاب **الحروف** وكتاب **الألفاظ المستعملة في المنطق** للفارابي هما أقرب مثال في التراث العربي الاسلامي لهذه المدرسة الفلسفية) . وكان لهذا التغيير الفلسفي الجذري وما تبعه من تطورات داخل هذه المدرسة ذاتها تأثير عميق على كتابة التاريخ . فقد انحصر اهتمام العدد الأكبر من المؤرخين الانكلوسكسونيين بتاريخ العالم الأنكلوسكسوني نفسه وساد التخصص الضيق صفوفهم فأصبح الكثيرون منهم معروفين بأنهم خبراء في قرن واحد من القرون أو بتاريخ رقعة ضيقة من انكلترا مثلا أو أميركا أو هولندا . هذه النزعة الانعزالية تمثل الوجه الآخر لمدرسة توينبي وشبنغلر العالمية . فانهيار الأمبراطوريات نبه البعض الى تاريخ العالم ولكنه أيضا جعل الكثيرين ينغلقون على أنفسهم في عالم ينبذ الغيبيات والتعميمات والقوانين على أنواعها ، وينبذ أيضاً معظم المشاكل الناجمة عن صلة الماضي بالحاضر أو عن ميتافيزيقيا التقدم والانحطاط . فالتاريخ عندهم كالفسيفساء التي يجمعها الصانع بكل دقة وعناية . وإذا كان ثمة عبرة للتاريخ فهي أن التاريخ « يجب

أن نكتبه بلا انقطاع »[1] وأنه « يفتقر كليا الى الاحصاء والقياس وهي الشروط التي لا بد منها لكل معرفة علمية صحيحة »[2] وأنه « لا يسبر غوره ويعصى على النظام والقانون »[3] .

ولعلنا نظلمهم بعض الشيء إن نحن وضعناهم في صفوف مدرسة واحدة فالحرب بينهم سجال[4] . لكن الأمر الذي يشكل القاسم المشترك بينهم هو رفض التاريخانية ، خصوصاً في شكلها الماركسي (كما في كتابات بوبر وبرلين)[5] والدور الكبير الذي يعزونه في أبحاثهم لعامل الصدفة والخطأ والارادة الحرة . ويذهب البعض منهم بعيداً في هذا الطريق (البريطاني تايلر مثلاً) فيرى في التاريخ الديبلوماسي والعسكري سلسلة من الأخطاء يرتكبها رجال تائهون في دهاليز القصور ، فهم لا يخلقون الأحداث بقدر ما يتخبطون في الرد عليها ، ولا يعرفون عن المستقبل الا ما يحصل بين ليلة وضحاها . واندلاع الحروب في رأي البعض منهم أبرز مثال على هذا التخبط وسوء الفهم وانعدام التخطيط (فهم في هذا الأمر على طرفي نقيض من أصحاب مدرسة « المؤامرة » في التحليل السياسي ـ التاريخي) . ويجد القارىء في مذكرات بعض أقطاب السياسة كبسمارك في القرن

---

(١) انظر : A.J.P. Taylor , **The Origins of the Second World War** (London : Hamish Hamilton, 1961), p.10 .

(٢) انظر Henri Pirenne, « What are Historians Trying to Do? » in Hans Meyerhoff ed ., **The Philosophy of History in Our Time** (N.Y : Doubleday Anchor, 1959), p.97 .

(٣) انظر : Pieter Geyl, **Debates with Historians** (London: Fontana, 1962), p. 281.

(٤) انظر مساجلاتهم في الكتاب الصحفي المتع : Ved Mehta, **Fly and The Fly Bottle** (London : Weidenfeld, 1963), pp. 89 ff .

(٥) انظر : K.R. Popper, **The Poverty of Historicism** (London : Routledge, 1961) Isaiah Berlin, **Historical Inevitability** (London : O . U . P . , 1955) .

الماضي وكيسنجر في قرننا الحاضر نوعاً من التأييد لهذا القـول إذ أنهم يعترفون أن القرار السياسي ، وخصوصاً في زمن الأزمـات ، كثيراً مـا يتقلب على غير هدى في غمرة الأحداث ومجابهتهـا ، فيتلاشى التخـطيط وتسود الصدف على أنواعها والعوامل النفسية المتضاربة .

ولا ريب في أهمية ما أسهمت به هذه المدرسة فقد جاء تـأكيدهم عـلى رصـد الأحـداث المنفـردة وعـلى الاختصـاص الضيق والتجـرد الأكـاديمي والابتعاد عن القـوانين ليعـطي ثماره في ازديـاد معلوماتنـا المحققة عن العديد من الحقبات التاريخية . كما أنها أثـارت من جديـد عـدداً كبيراً من الأسئلة بعضهـا سهـل نسبيـاً وبعضهـا يبقى بـدون جـواب : ما هـو العلم وهل التـاريـخ من بـين العلوم ؟ هـل نبحث عن المـؤرخ قبـل أن نبحث عن التـاريـخ ؟[1] مـا عـلاقـة مشكلة الذاتيـة والموضوعية بالتاريخ ؟ ما تعريف الحدث التاريخي ؟ ما تعريف السبب في التاريخ ؟ وما هو البرهان التاريخي ؟ هذا السـؤال الأخير هـو نقطة التماس الثانية بين المؤرخين ، كما أسلفنا . وهـو يدور في الواقـع حول منطق التفسير التاريخي وعلاقتـه بمنطق التفسـير في العلوم الأخرى . وقد مررنا بهذه المشكلة وببعض المشاكل الأخرى في الباب الأول وسوف نتطرق إلى بعضها فيما بعد ولربما لن نجد لها حلاً مناسباً . لكن المدرسة الأنكلوسكسونية تبقى في النهاية أوروبية وأميركية في آفاقها ولا تأبه بشكل عام بالمقارنات مع تواريخ العالم الثالث ، وهذا على ما أظن ، نقطة ضعف أساسية .

نعود فنؤكـد أن هذا التقسيم للمـدارس التاريخيـة الكبرى فيـه نـوع من التعسف والتبسيط لواقـع الحال . لكننـا نسمع منـه أصداء

---

(١) انظر : E.H. Carr, **What is History?** (New York: Knopf, 1962) وقد ترجم هذا الكتاب الهام الى اللغة العربية تحت عنوان **ما هو التاريخ ؟** (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٠) .

لاتجاهات تاريخية مرت بنا من قبل كالاتجاهات الدينية والحضارية والانسانية : تاريخانية ابن خلدون وعالمية المسعودي وإنسانية مسكويه . ويبقى بالطبع العديد من المؤرخين الذين لا يمكننا أن ننظمهم بسهولة في صفوف هذه المدرسة أو تلك . فالمؤرخون المتخصصون وهم جمهور المؤرخين يشعرون بنوع من الوحدة ، من الاغتراب ، لأن موضوعهم لا يمكن له أبداً أن يكون شيئاً محسوساً فكل واحد منهم يركض وراء أشباحه الخاصة . وهذه الوحدانية في العمل تجعل الجمع بينهم في كنف مدرسة فكرية واحدة أمراً عسيراً .

الباب الخامس ■■■

عقلية المؤرخ

إذا افترضنا جدلاً أن المؤرخ صاحب صنعة فما هي العقلية التي يجب أن يتحلى بها ؟ وما هو التدريب الذي يجب أن يتبعه ؟ وما هي الأدوات التي يجب أن يستخدمها ؟ لقد استعرضنا حتى الآن بعض الأمور والمشاكل المتعلقة بالتاريخ ولربما كان هذا الاستعراض يتسم في بعض الأحيان بروح نظرية نقدية سلبية . أما في هذا الباب وفي الذي يليه فعلينا أن نتجه الى الأمور العملية التي تواجه المؤرخ فنبحث بشيء من التفصيل والايجابية عن تكوين المؤرخ وتربيته الذهنية ، مع الإشارة الى أن الاراء المبينة أدناه تصدر عن مؤرخ محترف لا عن فيلسوف .

لنبدأ بالقول ان القصة أو الأسطورة هي كالاطار للتاريخ . فالعمل التاريخي ، كالقصة أو كالفلم السينمائي لا بد له من بداية ووسط ونهاية ، والتاريخ كالقصة يتطلب نفساً طويلاً فالأمور لها مقدمات وتطورات ولواحق . والقصة الجيدة تتطلب سرداً جيداً . كذلك التأريخ الذي لا يمكن أن يكون مجرد سلسلة من الوقائع بل عليه أن يسرد هذه الوقائع ، أن يحللها ومن ثم يعقدها ، أن يحبكها حبكاً متقناً يسهل على القارىء الاستيعاب والفهم . والانسان قصصي بطبعه لكن المؤرخ هو الذي يحمل القصة على محمل الجد ، هو الذي يضع للقصة منطقاً قد نطلق عليه إسم المنطق التاريخي .

وإذا سلمنا أن القصة هي قالب التاريـخ ينبغي على المـؤرخ أن يعرف أيضا ما يفرق التـاريخ عن القصص . فالتاريخ يأتي عـلى شكل القصـة لكنـه وإن حمـل شكلهـا فـإنـه يختلف عنهـا في الهـدف وفي الأسلوب . وقد نظلم القصة حين نقول ان هدفها هو التسلية أما هدف التـاريخ فهـو الفهم ، إذ أن القصص التي لا تهـدف الا الى التسليـة ليست في العادة جديرة باسم القصة[1] . لكن مؤرخي العصر الحـاضر مجمعون تقريباً على أن الهدف النهائي في التأريخ هـدف عقلاني يتعلق بازدياد الفهم بشكل أو بآخـر أما التسليـة فهي هدف ثـانوي . وفيمـا يختص بـالأسلوب فإن المـؤرخ لا يمكن أن يقلّد الأسلوب القصصي في جميـع الوجوه . فهنـاك قبل كـل شيء العبـارات التي تنم عن التحفـظ والتي يجب على المؤرخ أن يستخدمها باستمرار « كربما » و « لعـل » و « حـوالي » و « في بعض الأحيان » و « غـالباً » و « عـلى الأرجـح » و « البعض » و « معظم » والى ما هنالك من التحفظات . وعليه أيضاً وفي المقابل أن ينبذ عبارات كالآتية : « كل » « كافة » « اجمع » « دائماً » والى مـا هنـالك من التعميمـات . وهـذا الأسلوب التـأريخي المتحفـظ والدقيق لا يمكن استخـدامه في القصص عـلى وجه العمـوم بـدون أن تتحول القصص الى ما يشبه رسائـل البلغاء . التحفـظ والدقة إذا من صلب المنطق التاريخي . فالتحفظ مفـروض فرضـاً على المـؤرخ لأنه لا يمكنـه أن « يعلم كل شيء » ، كمـا يعلم القاصّ ، أمـا الدقة فـلأنه لا يمكنه أن يتصرف بالوقائع ، كما يتصرف القاصّ .

ومن صلب المنطق التاريخي ترويض الذهن على معالجة موضوع الأسباب والنتائـج الذي يلقاه المـؤرخ عند كـل منعطف من منعـطفات الطريق . وموضوع السببية له تاريخ طويل في الفلسفة الأوروبية

---

(١) وهذا ما رمى اليه الروائي البريطاني المعاصر غراهام غرين حين أطلق اسم « تسليـة » على بعض رواياته .

كمـا في الفلسفة العـربية وفي علم الكـلام ، فلا بـد للمؤرخ أن يلمّ ولو عرضا ببعض النظريات الفلسفية في هذا الحقل . ولعل نقـطة الانطلاق الفضلى للمؤرخ هي كلام ابن خلدون الذي مر بنـا من قبل ومفـاده أن الحوادث الكبرى لهـا في العادة أسبـاب كبرى ومعقـدة . هذا في رأيي يشكل المقياس الأهم للمؤرخ فالثورات والحروب مثلا لها نتائج معقـدة ولهـا في الغالب أسبـاب معقدة أيضـاً[1] . لكن البحث عن السببيـة لا ينتهي هنا . فالسؤال الذي يتبع المؤرخ كظله هو : « لماذا ؟ » والمؤرخ في هـذا الصدد يشبـه الطفـل الذي يبلغ سنـاً معينـاً فيكتشف لفـظة « لماذا ؟ » ويكتشف أبواه أيضا أنهما لا يملكان الجـواب الشافي عـلى تلك السلسلة اللامتنـاهية من « اللمـاذات » التي يرشقهـا بهما طفلهما النبيه . الأسباب إذا تقع على شاكلة سلسلة لكن وظيفة المؤرخ هي بتر هذه السلسلة في المكان الذي يجده مناسباً لأجل تفسـير الحوادث ، أو على الأقل ، لأجل وصفها وصفاً يتناسب مـع ما تـوحي به المصـادر . ولكن أين يبتر المؤرخ هذه السلسلة السببية ؟ انه يبترها بمجرد انتقاء موضوعه فاختيار الفترة التي يود المؤرخ أن يـدرسها هـو بتر لمسيـرة التاريخ وهو في الوقت ذاته بتر للسببية التي ترافق هذه المسيرة . فإذا اقتطع المؤرخ قطعة من التاريخ فإنه كمن يقتلع شجـرة مع جـذورها . الأسبـاب جذور الحـوادث ، وعند تفحص الجـذور ، عـلى المـؤرخ أن يكتشف ويفهم ويصف تشعبـات هذه الجـذور وأهميتهـا بـالنسبـة الى بعضهـا البعض . وأظنه إن فعـل ذلك فإنـه يضـع جـانبـاً المشـاكـل الفلسفية المزمنة حول السببية وينصرف الى الحدث كظاهـرة متكاملة . فإذا نجح في وصفها فهذا أقصى مـا يمكن أن يقدمـه المؤرخ من عـون نحو توضيح مشكلة السببية ، وذلك بدون الخوض في حلبة الفلاسفة .

وإذ عـرّفنا السببيـة بـأنهـا وصف لجـذور الأشيـاء ننتقـل الى

(١) رأينا أعلاه أن بعض مؤرخي المدرسة الانكلوسكسونية يرفضون هذا الرأي .

الحديث عن البرهان في التاريخ أي : كيف يتم هذا الوصف ؟ وما هي بعض المبادىء التي يستند اليها الوصف ؟ قلنا قبل قليل ان الوصف التاريخي يأتي على شكل السرد القصصي وهذا يعني فيما يعنيه أن على المؤرخ أن يكتب بأسلوب الفقرات الطويلة لا بأسلوب البيان أو القائمة العددي . فالمؤرخ الذي يكتب مثلاً أن « الثورة الفلانية لها الأسباب التالية : ١ . ٢ . ٣ . ٤ »[١] ... لا يكون قد أدى وظيفته على الوجه الأكمل لأن من أدنى واجباته أن يضع أمام القارىء ترجيحاته الشخصية فيما يتعلق بالأهمية النسبية للأسباب ، فيكتب : « الثورة الفلانية لها أسباب رئيسية أهمها كذا وكذا وأسباب ثانوية هي كذا وكذا » ويفرّق بينها بدقة ويوضبها كما يوضب عمال المصانع الزراعية الخضار في الصناديق بحسب أحجامها . وفي عملية التوضيب هذه يصل المؤرخ الى قرارة عمله . وإذا تفحصنا مبادىء هذه العملية (قضية البرهان في التاريخ) نجد أن التاريخ يستخدم المزيج نفسه تقريباً من البراهين التي تستخدمها العلوم الأخرى . فهناك « العلم بطبائع الموجودات » الذي يذكره ابن خلدون وهناك الدقة في انتقاء اللفظ والخبرة والخيال وبعض المقدمات العقلية الأولية كترجيح الأقدم والمتواتر من الروايات . ولا ريب أن مثل هذه الأمور تبقى مبهمة إذا لم نتناول البعض منها بشيء من الاسهاب .

والسؤال الأول هو : هل يختلف البرهان في التاريخ عنه في العلوم الأخرى ؟ الآراء هنا مختلفة عند المؤرخين المعاصرين فالمدرسة الانكلوسكسونية تؤكد في الغالب على التفاوت بين براهين التاريخ وبراهين العلوم الأخرى أما مدرسة الحوليات والمدرسة الماركسية فتبدو لي وكأنها تؤكد في الغالب على التشابه بين البراهين . فالتاريخ في

---

(١) وهذا الأسلوب يسود الكتابات السياسية العربية المعاصرة ، ويجب أن يحذر منه المؤرخ أشد الحذر .

براهينه على زعم المدرسة الأولى لا يستعمل « لغة تقنية » أي تعابير وألفاظاً خاصة به ، كما في بقية العلوم[1] . والتاريخ يجب أن يصدر أحكامه بالتأنيب أو المديح وبالازدهار أو الانحطاط لأن التاريخ هو حقل تجارب الارادة الانسانية الحرة . أما بالنسبة الى مدرسة الحوليات والى توينبي وجماعته (وإلى الماركسية الى حد كبير) فإن التاريخ عليه أن يستخدم لغة خاصة به (« وسائل الانتاج » « شرائح مكانية » « البروليتاريا الداخلية ») مثله في ذلك مثل سائر العلوم وعليه أيضا أن يستخدم العلوم المقارنة فيبدو التأريخ وكأنه جيش جرار من العلوم يزحف بانتظام نحو تغطية الهدف . وليس من الضروري في واقع الحال أن يقرر المؤرخ عما إذا كان سيتبع تعاليم هذه المدرسة أو تلك لكن العمل المتواصل في البحث التاريخي هو الذي يجعل المؤرخ مؤرخاً وليس طبيباً أو نجاراً أو عالماً اجتماعياً . وهذا العمل المتواصل يخلق في الذهن صورة معينة عن المؤرخ ينبغي أن نتلمس الآن بعض خطوطها العريضة والتي لم نتطرق اليها أعلاه .

إذا سلمنا جدلاً أن التاريخ هو التحول فالمؤرخ يجب أن يهتم بكافة أنواع التحول ، الفلسفي والطبيعي والاجتماعي والنفسي ، وبتعريفات التحول في هذه العلوم . وهذا بدوره يجرّه الى الاهتمام بالمتصل والمنفصل في التاريخ وفي الفكر[2] . كم يلزم للمتصل أن يتصل

---

(١) انظر مثلاً : Berlin, **Historical Inevitability**, p. 51 وتبعه في هذا الرأي المؤرخان الاميركيان : Jacques Barzun and Henry Graff, **The Modern Researcher** (N.Y. : Harcourt Brace, 1970) p. 134.

(٢) ولعل أهم اسهام حديث في هذا الموضوع هو كتاب : Michel Foucault, **Archaeology of Knowledge** (London: Tavistock Publications, 1977).

فبين المنفصل والمتصل تقع « الأركيولوجيا » ، والجسور بين فوكو وبين مدرسة الحوليات ظاهرة للعيان .

حتى يصبح متصلاً وكم يلزم للمنفصل أن ينفصل حتى يصبح منفصلاً ؟ لربما تقولون ان هذه الأمور ما هي الا الغاز وأحاج ذهنية لكن المؤرخ يجب أن يسأل عنها باستمرار . هل الفترة الأموية تمثل تلاحقاً أم تقطعاً عن فترة الخلفاء الراشدين ؟ ان المؤرخ الذي يكتفي بالتقسيم المتبع والتقليدي لعصور التاريخ العربي لا يفيدنا بقدر ما يفيدنا المؤرخ الذي يطمح الى فرز المتلاحق عن المتقطع وبالتالي الى إعادة تقسيم العصور وفقاً لمقاييس مستمدة من التطورات الاجتماعية والفكرية المعاصرة . عندئذ يصبح اكتشاف المنعطفات الجديدة من أهم واجبات المؤرخ وأعمها نفعاً .

وفي هذا الصدد يكثر الحديث عن خيال المؤرخ ، فهذا الخيال ، كما يقال لنا ، هو صابون التأريخ هو الذي يميز المؤرخ العادي عن المؤرخ الموهوب ، هو الذي يضفي على العمل التاريخي وزنه وأهميته (ومتعته أيضا) . لكن هل الخيال في التاريخ يختلف عن الخيال في العلوم الأخرى ؟ يبدو لي ولأول وهلة أن الخيال له أهميته الخاصة في شتى العلوم (ناهيك عن الفنون) فإذا عرفنا الخيال جدلاً بأنه قلب صورة الأشياء على عقبها ، نرى أن الخيال ضروري جدا للعالم الطبيعي الذي يسعى في مختبره الى قلب الظواهر وإعادة ترتيبها والى نكص المألوف والعادي حتى يتسنى له أن يرى الظواهر من منظار جديد ، وهذا الأمر يفعله أيضا الفنان في محترفه الذي يسعى الى رؤية الواقع من زوايا جديدة وبذا الى اكتشاف واقع جديد . فمن هذا المنظار يتساوى اينشتاين مع بيكاسو في الخيال إذ أن كلاهما نجح في قلب النظرة المألوفة الى الطبيعة . وإذا كان هذا أو ما يشابهه هو تعريفنا للخيال فلا أرى أن خيال المؤرخ يختلف عن ذلك اختلافاً بينا ، إذ أن انفتاح المؤرخ على العلوم الأخرى وخصوصاً على مسألة التحول في هذه العلوم يمنحه في نهاية الأمر القدرة على تصور الحوادث من

زواياها المختلفة[1] . لكن المؤرخ مع كل ذلك يلزمه نوع خاص من الخيال الا وهو القدرة على تصوّر الماضي وكأنه حاضر ، يلزمه أن « يعيش » في المدن الوسيطة مثلا لكي يؤرخ لها ، يعيش في أزقتها ودروبها وفي شوارعها المليئة بالقاذورات ومع أهلها الذين تفتك بهم الأوبئة ، وأن « يسمع » ضجيج الناس وكلامهم وأن يسترجع صورة الماضي بكل ما فيه وأن ينقل هذه الصورة في بوتقة الحاضر . وهذا النوع الخاص من الخيال ، أي الخيال التاريخي ، مزيج من عوامل عدة تصب كلها في عملية تكوين المؤرخ . فالفترة التاريخية التي يدرسها المؤرخ لا تسترجع الى الذهن عن طريق الخيال الا إذا كان المؤرخ منفتحاً على كافة أنواع التحوّل التي توحي به المصادر من خلال انفتاحه المستمر على العلوم الأخرى وخصوصاً العلوم الاجتماعية . وقد خصصت العلوم الاجتماعية لأن التاريخ في ذاته وفي أسلوبه أقرب اليها كما هو واضح منه الى العلوم الطبيعية مثلا . فالانفتاح يشحذ الخيال التاريخي ويمنح المؤرخ فرصا جديدة لاسترجاع الحوادث ومن ثم لتفسيرها وتحليلها .

ولا مجال هنا لايراد العديد من الأمثلة على هذا الخيال التاريخي فكل واحد منا يحفظ في ذاكرته أمثلة معينة عن دراسات أو تفسيرات يرى أنها قد غيرت مفاهيم سابقة أو أفادت في القاء الضوء على زوايا مظلمة من التاريخ . لكن بعض الأمثلة السريعة قد توضح ما أعنيه بالخيال التاريخي . ففي التاريخ القديم مثلا هناك كتاب رونالد سايم عن « الثورة الرومانية » التي أذنت بانهيار الارستقراطية وصعود الطبقات الوسطى ومن ثم نشوء الامبراطورية الرومانية على أيدي أغسطس[2] . هذه التحولات الاجتماعية الكبرى التي واكبت

---

(١) الثورة العباسية : كيف كانت تبدو من وجهة نظر الفئات التي قهرتها ؟

(٢) انظر : Ronald Syme, **The Roman Revolution** (London : O.U.P., 1960)

انهيار الجمهورية الرومانية وقيام الامبراطورية والتي نبه اليها المؤلف تمثل في الواقع حصيلة استنطاق جديد لمصادر قديمة . فالمؤلف لم يهتد الى مصادر جديدة بقدر ما استنار بأسئلة جديدة ومنظار سوسيولوجي جديد . وفي التاريخ الأوروبي الوسيط هناك كتاب روبرت سذرن عن « المجتمع الغربي والكنيسة في القرون الوسطى » الذي يعيد تقسيم الفترات التاريخية المعهودة ويرجّع عصر النهضة ، في مفهومه الكنسي على الأقل ، الى القرن الحادي عشر ويربط بين نشوء فرق الرهبان المختلفة من جهة وبين انحسار الريف وعودة النشاط الى المدن من جهة أخرى[1] . وفي التاريخ الأوروبي الحديث هناك كتاب جورج روده عن « الجماهير في الثورة الفرنسية » الذي يرصد بدقة الجذور الاجتماعية للجماهير المختلفة التي شاركت في بعض أهم المنعطفات في الثورة الفرنسية وذلك من خلال دراسة سجلات الشرطة الباريسية ، ويصل الى استنتاجات جديدة عن التطورات الاجتماعية التي واكبت تحولات الثورة الفرنسية[2] . وفي التاريخ العربي الاسلامي القديم هناك كتاب نبيهة عبود (Nabia Abbott) ذو الأجزاء الثلاثة بعنوان « دراسات في أوراق البردى العربية الأدبية » والتي استعملت فيها المؤلفة أوراق البردى للوصول الى نتائج جديدة عن نشأة التدوين (ومن ثم العلوم الاسلامية المختلفة) في الحضارة الاسلامية والتي برهنت المؤلفة على أنه أقدم بكثير مما كان عليه الاعتقاد في السابق[3] . وفي التاريخ

---

(١) انظر : R.W. Southern, **Western Society and the Church in the Middle Ages** (Harmondsworth : Penguin Books, 1970) .

(٢) انظر : George Rude, **The Crowd in the French Revolution** (Oxford : Clarendon Press, 1959) .

(٣) انظر : Nabia Abbott, **Studies in Arabic Literary Papyri** Vols. 1-3 (Chicago: University of Chicago Press, 1967 ff).

العربي الحديث هناك كتاب البرت حوراني بعنوان « الفكر العربي في عصر النهضة » الذي نجد فيه تحليلاً دقيقاً لتغيّر التيارات الفكرية في العالم العربي الحديث من دينية اصلاحية الى وطنية فقومية ، وخيالا مرهفاً يستخدم حتى الطوابع البريدية للدلالة على تقلبات المشاعر في العالم العربي[١] .

وليست هذه القائمة الصغيرة من الكتب سوى أمثلة معدودة على أعمال تتميز على ما أظن برؤية جديدة أو تفسير جديد كما تتميز بقوة الخيال التاريخي الذي يسعى الى إعادة تقسيم فترات تاريخية بأسرها والى استخدام المصادر على أنواعها . ومن الملاحظ أن هذه الكتب كتبت جميعها بأسلوب أدبي بسيط موجز ينبذ الاستعارة والتشبيه والبديع من الألفاظ والتكلف والنعوت الكثيرة والحشو . وفي المقابل فإن في هذه الكتب أيضا رغبة في إيصال المعلومات ليس فقط الى أصحاب الاختصاص بل الى جمهور أوسع من المثقفين الذين يفترض أن يكونوا مهتمين بالاطلاع على التاريخ . فالمؤرخ الذي ينير زاوية مظلمة من زوايا تاريخ معين ومخصوص ينبغي عليه أن يسعى بقدر المستطاع الى إرسال بعض الشعاع الى زوايا هيكل التاريخ الأكبر .

من هنا فإن النظرية تغني العمل التاريخي خصوصاً إذا كانت النظرية متحركة لا جامدة وخاضعة لما توحي به المصادر لا طاغية عليها ووسيلة لفهم الوقائع لا غاية في حد ذاتها . ويتغذى التأريخ من ينابيع نظرية عديدة . والتخصص في صنف من أصناف التاريخ هو الذي يحدد في العادة المصادر النظرية الملائمة فالمؤرخ الاقتصادي يتجه الى النظريات الاقتصادية (صناعية أو زراعية) والاجتماعي الى نظريات علمي الانسان والمجتمع والفكري الى الفلسفة والنقد الأدبي وفلسفة

---

(١) انظر: Albert Hourani, **Arabic Thought in the Liberal Age** (London : Oxford University Press, 1962) .

التاريخ وهكذا . وبما أن النظريات في كل هذه الحقول تتغير باستمرار فإن المؤرخ لا يسعه الا أن يعيد النظر فيها على الدوام . وهذا اللقاح المستمر بين النظريات الاجتماعية والتاريخ ينمي في ذهن المؤرخ نوعا من الحكمة تمكنه من رؤية الحوادث بمنظار زمني طويل « وتعليل المتفق منها والمختلف » كما يقول ابن خلدون ، ومن فهم الوقائع فهماً شمولياً . لكن حكمة المؤرخ لا تتغذى من النظريات فحسب بل أيضا مما نسميه « خبرة الحياة » . فإذا شارك أحدنا في مظاهرة سياسية فإنه « يتعلم » تصرف الجماهير وإذا دخل السجن من أجل مبادئه فإنه « يتعلم » معنى القمع السلطوي ، وإذا سنحت له الفرصة أن يشهد عن كثب سير مفاوضات سياسية فإنه « يتعلم » حقيقة موازين القوى ، والى ما هنالك . لذا لا بد للمؤرخ من أن يدوّن ، ليس فقط أعماله التاريخية في الكتب والدراسات ، بل وأفكاره الخاصة كذلك في دفاتر منفردة تشكل مع الأيام حصيلة ما يطرأ على فكره من تطور أو تفاعل أو تجديد .

وتبقى في المكان الأخير مسألة العلاقة الحميمة بين التأريخ والنقد ، فإن من صميم العقلية التأريخية في رأيي أن يكون المؤرخ ناقداً . والنقد الذي أقصد هو نقد النصوص والوثائق من جهة والنقد الذاتي من جهة أخرى . وفيما يختص بنقد النصوص والوثائق ، فإن مهمة المؤرخ هي في استنطاق النص وفي استكشاف ملامحه واستخدامه بشكل مناسب في عملية البناء التاريخي . لكن السؤال : « ماذا يقول هذا النص ؟ » ليس سوى بداية المتاعب فالنصوص أصوات تتكلم الينا على موجات مختلفة وكلما ازداد النص أهمية تشابكت الأصوات والموجات . من هو المؤلف ؟ وما هي مصادره ؟ وما هي الواضيع المطروقة ؟ وما بنيان النص ؟ وما ترتيب المادة داخل النص ؟ وما علاقة النص بنصوص أخرى مشابهة ؟ ما هي « شبكة » النص ؟ كيف برز النص الى الوجود وما شروط وجوده ؟ وما

« الحلقات » التي تحيط به كما يقول فوكو[1] ؟ وما هي « سلطة » النص ؟ ولمن كتب النص ؟ وما نقاط التشابك والخلاف بين « عالم » النص وعالمنا نحن ؟

هذه اسئلة تردد صداها علوم مختلفة لكن المؤرخ يوحد فيما بينها من خلال استجوابه الشامل للنصوص ونقدها ، وللوثائق والآثار على انواعها[2] . والنقد الذاتي يبدأ لحظة شروع المؤرخ في الكتابة . فالمؤرخ الحريص يمحو بقدر ما يكتب (تقريبا) ويضع نصب عينيه ما قد نسميه شيطان النقد الذي ينتصب وراء كل جملة او فقرة ، ويسخر منه اذا اصطاد شططا في المنطق او غموضا في التعبير او احكاما تتعدى ما تسمح به المصادر او شرودا عن الموضوع او سببا ليس بسبب او ترجيحا لا اساس له او خللا في ترتيب المادة او اية آفة اخرى من آفات البحث التاريخي او البحث في العلوم الاجتماعية عموما[3] .

ولعل من المفيد ان نستعرض بايجاز بعض الامثلة المأخوذة من كتب تاريخية معاصرة تتضمن اصنافا مختلفة من التفسيرات المغلوطة التي يجب على المؤرخ ان يتجنبها قبل ان يطالها شيطان النقد . وقد اخترتها لا لفداحتها بل لانها على العكس اخطاء شائعة لا يكاد يخلو منها اي كتاب في التاريخ (بما في ذلك طبعا كلامنا الحاضر) .

---

(١) انظر : . M.Foucault, **Archaeology of Knowledge,** p.137

(٢) لا يزال كتاب الدكتور أسد رستم **مصطلح التاريخ** (بيروت : المطبعة الأميركية ، ١٩٣٩ ، وطبعات لاحقة) ذا فائدة كبرى في تفسير مبادىء نقد النصوص . أما في الانكليزية فإن كتاب Barzun and Graff, **The Modern Researcher** هو لربما أكثر الكتب تداولاً في هذا الموضوع في الجامعات الأميركية في اليوم الحاضر .

(٣) أنظر : R.Graves and A.Hodge, **The Reader Over Your Shoulder** (London : Cape, 1967) .

فهو من أفيد وأمتع الكتب التي تعالج الأخطاء الشائعة في الكتابة الأكاديمية .

١ ـ « ولكننا لا نستطيع ان نلوم (الخليفة) المقتدر كل اللوم لان المرء نتاج بيئته » .

٢ ـ « اننا نعتقد بان الثورة هي كل حركة موافقة لسير التاريخ ولمصلحة الفئة التي قامت الثورة من اجلها » .

٣ ـ « ولهذا استمر هذا الولاء (للامويين) باشكاله المختلفة لتواجد مستلزمات وجوده على المسرح الديني السياسي » .

٤ ـ « كان من ضرورات التطور ان يحصل الذي حصل بالفعل » .

٥ ـ « كان من المحتم اذا ان ينجح هذا التيار ويتلاشى كل ما عداه » .

٦ ـ « لقد فشلت الفلسفة (الاسلامية) في تحقيق حلمها في المشرق وعليها ان تبدأ من الصفر في المغرب » .

٧ ـ « فهي (الاشكالية النظرية) تظل قائمة ما دامت الشروط المادية والابستيمولوجية التي تؤسس ذلك الحقل المعرفي قائمة » .

واذا تأملنا قليلا هذه النصوص السبعة ، والتي اخترناها على شكل عينة عشوائية ، نجد ان الارقام ٣ و ٧ تنتمي الى فصيلة واحدة تقريبا من الاغلاط الشائعة في التأريخ ، اي الحشو والتفسير الدائري . ففي الرقم ٣ يظل الولاء مستمرا ما دام مستمرا وفي الرقم ٧ تظل الاشكالية قائمة ما دامت قائمة . ونجد كذلك ان الارقام ٤ و ٥ تمثل ارتماء المؤرخ في احضان الحتمية فالحتمية كلمة رنانة ، لكن هذا الاستعمال للحتمية ليس الا ذريعة تعطى لكي لا يخوض المؤرخ في الاسباب الحقيقة لاننا اذا استعملناها على هذا القياس فكل حدث تاريخي هو حتمي بالضرورة . وفي الرقم ٢ نجد مثالا شائعا على الغيبيات التي تتسرب الى التأريخ من خلال الايمان بشيء اسمه « سير التاريخ » وباشياء « توافق » هذا السير واخرى لا توافقه . والتوافق هنا لا يمكن ان يعني سوى النجاح ، فالثورة اذا هي كل حركة ناجحة . وهذا التعريف للثورة لا يفيدنا اطلاقا في فهم الثورات وتمييزها عن الانتفاضات مثلا ولا في فهم ينابيع الثورات التاريخية .

وفي الرقم ٦ نرى مثالا على الخطأ الذي يرتكبه مؤرخو الفكر حين يفترضون حدوداً ونهايات قاطعة لأمر هو الفكر لا يمكن لنا أن نحده ونقطعه بمثل هذا الحزم .

وقد ابقيت الحديث عن الرقم ١ حتى النهاية لان هذا النص يستدعي منا البحث في مسألة لم نتطرق اليها بعد في كلامنا عن ذهنية المؤرخ : تلك هي مسألة اصدار الاحكام في التاريخ والتي سوف نختتم بها هذا الباب . فالمؤرخ كثيرا ما يدعى الى اصدار الاحكام التقييمية او الخلقية على حوادث الماضي وشخصياته . وقد رأينا اعلاه ان الحكم على فترات من تاريخ الفكر بالازدهار وعلى اخرى بالانحطاط (خصوصا في تاريخ الفكر العربي الاسلامي) لا ينبغي ان يصدر جزافا اذ لا تخلو أية فترة فكرية ، مهما بدت ضاحلة ، من معالم فترة سابقة او بذور فترة لاحقة . وقد تكلمنا ايضا عن صعوبة اصدار الاحكام فيما يختص بالازدهار والانحطاط الاقتصادي ، خصوصا في العصور الوسطى . وتبقى مسألة الاحكام الخلقية التي لا تزال تحتل حيزا لا بأس به من معظم الكتب التي تبحث في فلسفة التاريخ . والآراء بين المؤرخين متضاربة منذ القدم ، خصوصا عندما يتعلق الحكم بشخصية تاريخية بارزة او بحدث تاريخي عميق الاثر . ونكاد نقول ان ضرورة اصدار الاحكام الخلقية تزداد تبعا لازدياد اهمية « البطل » او الحادثة . وهناك شخصيات تاريخية قد خلفت وراءها تراثا طويلا من الاحكام التي اصدرتها اجيال متعاقبة من المؤرخين (كتاب عزيز العظمة عن ابن خلدون وكتاب بيتر خيل عن نابوليون مثلا) . وهذه الاحكام الخلقية هي الاحكام التي يشير اليها اهل السياسة في يومنا الحاضر حين يتكلمون عن التاريخ وكأنه محكمة العدل العليا ، ناسين ان احكام التاريخ ليست نهائية بل تتبدل باستمرار من جيل الى آخر .

ان الاحكام الاخلاقية تبنى في العادة على ركائز فلسفية او دينية

معينة . فالمؤرخ الذي يؤمن بالارادة الحرة او بالليبراليـة ينحو ، كمـا هو متوقع ، الى اصدار الحكم الخلقي على شخصيات التاريخ واحـداثه بدون تحفظ اما المؤرخ الذي يؤمن بشكل او بآخر من اشكـال الحتمية او الجبرية فانه ينحو الى التحفظ في اصدار مثل هذه الأحكام . لذا فان اتخاذ موقف ما من مسألة الاحكام الاخلاقية هو في الوقت ذاتـه اتخاذ موقف فلسفي او ديني حيال مشكلة الحرية والجبـر . بعض المؤرخـين يدعون صراحة وبشدة الى اصدار الاحكـام الاخلاقيـة بحق الناس في الماضي فهذا كان فاضلا وذاك شريرا وهذا الحدث كانت نتـائجه خيـرة والاخر كان وبالا والى ما هناك . وحجتهم في هذا ان العالم الذي نعيش فيه لا يمكن ان يعقل دون افتـراض حريـة الارادة الانسانيـة . ومتى وجدت الحرية ، وجدت المسؤولية الاخلاقية الفردية. امـا البعض الآخر من المؤرخين فانهم يدعون الى التحفظ الشديد ، ان لم يكن الامتناع ، عن اصـــدار مثـل هـــذه الاحكــام الاخــلاقيــة بسبب اتســـاع العلوم الاجتمـاعية وتقلص حجم الارادة الحـرة في ظل المؤسســات على شتى انواعها . ويوجد بالطبع مؤرخون يقتربون من هذا الموقف او ذاك وعلى درجات مختلفة . ويلتزم الفريقان معا بالموقف القائل ان هذه الاحكام ، ان صــدرت ، يجب ان تستمد من مقـاييس الجيـل الذي تصـدر عليـه الاحكام لا من مقاييسنا نحن .

ولعـل من المفيد ان نضيف بعض المـلاحظات في هــذا السبيل ، ليس بـالطبع لحـل هذه المعضلة المـزمنة ، بـل للبحث عن طريق شبـه واضح قد يلجأ اليه المؤرخ . ان التاريخ العربي غالبا مـا يلوح امامنـا كسلسلة من العظماء ، وهـؤلاء العظمـاء غالبـا ما يـرتبطون في الذهن بأحكام خلقية مسبقة تـوجهها احيـانا تـوجهات سيـاسية معـاصرة . والمـؤرخ يجب ، قبل ان يصدر احكامـه ، ان يفحص الفترة التـاريخية بتمعن ، فـالزعماء السيـاسيون ، مثـلا ، تتفاوت قـدرتهم على العمـل بتفاوت قدرة المؤسسات المختلفة(من جيش ودواوين واحزاب الخ)

على الحد من هذه القدرة.فالطاغية هو المسؤول الاكبر في التاريخ ويليه في درجات المسؤولية كل من كانت مرتبته في القدرة اقل من ذلك.(وهذا ما دفع احد المؤرخين الى القول ان معظم العظماء في التاريخ هم من الاشرار) . اما فيما يختص بالحوادث التاريخية الجسيمة والحكم الاخلاقي عليها ، فان الامر يجب ان يعالج بالروية ، اذ ان هذه الأحداث تطال ضمنا اعداداً كبيرة من البشر . والحكم الاخلاقي عليها لا ينفك عن نوع من التقدير الكمي لخير البعض وشقاء البعض الآخر وعن المنظار الزمني الذي يلتزمه المؤرخ ، فربّ شر معجل ادى الى خير مؤجل والعكس . واذا سلمنا بضرورة الاخذ باسلوب مبسط ودقيق في الكتابة التاريخية وبالابتعاد عن استخدام النعوت والصفات ما امكن، نجد ان التخفيف من اطلاق الاحكام الاخلاقية يتبع حكما التبسيط والدقة . ان ذهنية المؤرخ يلزمها نوع من الصفاء والراحة والتي لا تستقيم معها الاحكام الاخلاقية المتفشية في سائر ارجاء عمله التاريخي . لذا فان المؤرخ الرصين يجب ان يتحاشى التمادي في اصدار الاحكام الخلقية أكانت من باب المديح المبجل ام من باب الهجاء القارع،فلا شيء يؤذي العمل التاريخي كالمبالغة ولا شيء يزكيه كالاتزان .

الباب السادس ■■■

اختيار موضوع الدراسة وتصميم البحث

نستعـرض في هذا البـاب المختصر بعض المسائـل العمليـة التي تواجه طلاب الدراسات العليا عندما يحـين الوقت لكتابـة الاطروحة او الدراســة المطولة في التـاريخ . وفي ايـامنـا هـذه تتـراوح الفتـرة التي تستغرقها كتابة الاطروحـات الجامعيـة بين سنتـين الى خمس سنين في الغالب . وهذه السنوات يصرفها الطالب في البحث والتفكير ، يقتـطعها من عمره ونشاطه وقد تكون من اصعب سنـوات حياتـه ماديـا ونفسيا وفكريا . لذا فان اختيار موضوع الدراسة بدقة وتصميم البحث بعناية يوفر على الطالب اضاعة الوقت الناتج عن الانتقال بين موضوع وآخر ، اذ كثيـرا ما يصــرف الشهور الطوال في التنقيب عن مـوضــوع معـين ليكتشف في النهاية انه ليس الموضوع الملائم لسبب من الاسباب . من هنا فان التمهل في انتقاء الموضوع اسلم من الاسراع في ذلك فلا بـأس ان امضى الطالب بضعــة شهـور في استعــراض المشــاكـل المتعلقـة بالمواضيع المختلفة قبل ان ينتقي موضوعه النهـائي فذلك انفـع له من اضاعة الوقت في القفز من موضوع الى موضوع على غير هدى .

وانتقاء الموضـوع يتم في الغالب لاسبـاب عديـدة ويكون البعض منها احياناً غير ذي صلة بالموضـوعية كـأن تستهوينـا فترة معينـة او شخصية معينة فنتجـه اليها كمن يتجـه الى صديق قـديم او الى ارض مـألوفة . لكن بـالرغم من وجود العـوامل النفسيـة المعقدة في اختيـار

الموضوع فان هناك بعض العوامل التي يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار ، ففي المقام الاول ، هناك الخبرة السابقة . فاذا كان الطالب قد اظهر ميلا نحو علم الاقتصاد في حياته الجامعية ، فقد يحسن صنعا اذا اختار موضوعا في التاريخ الاقتصادي وقد يتشجع اكثر اذا عرف ان التاريخ الاقتصادي العربي لا يزال الى الآن حقلا يحتاج الى العديد من العاملين فيه . وهكذا طبعا بالنسبة الى العلوم الاخرى ، كالزراعة او الطب او علم الاجتماع او الفلسفة او ما شابه . وهذا الانتقاء للصنف التاريخي الملائم يمثل في الواقع الخطوة الاولى والاهم نحو الهدف .

وهناك في المقام الثاني الفترة التاريخية : هل يتجه الى الوسيط ام الى الحديث ؟ وهذا الاختيار له ايضا ملابسات هامة . ففيما يتعلق بالتاريخ العربي ، فان انتقاء الفترة الوسيطة يعني ان على الطالب ان يقرأ العديد من المصادر العربية القديمة النثرية والشعرية وهو امر لا يعرف صعوبته الا من عاناها . كذلك ، فان بعض المؤرخين يرى ، ورأيهم جدير بالاعتبار ، ان التاريخ الوسيط ينفصل عن الحديث انفصالا عظيما وذلك بسبب هوة اسمها الثورة الصناعية . فالعالم الصناعي في رأيهم يختلف اختلافا جذرياً عن العالم ما قبل الصناعي ليس فقط في انماط الحياة بل وفي الطبيعة البشرية كذلك . من هنا فإن التاريخ الوسيط يتطلب خيالا اوسع او على الاقل خيالاً مختلفا عن الخيال الذي يستخدمه المؤرخ في الكتابة عن العصور الحديثة .

ومع اختيار الحقل والفترة يكون الطالب قد وصل الى منتصف الطريق او يكاد ، نحو تحديد الموضوع نهائيا . وهذا التحديد يجري في رأيي حسب بعض المبادىء العملية ، فهناك مثلا الاختيار بين موضوع واسع وموضوع ضيق . فاذا افترضنا على سبيل المثال ان الاختيار قد وقع على موضوع نشوء القومية العربية فمن المستحسن ان يقتطع الباحث جزءاً صغيراً من هذا الموضوع لكي يركز البحث في الزمان والمكان فالتركيز على قطر واحد وفي زمن قصير يكسب البحث عمقا

ودقة . القاعدة اذا هي تركيز الموضوع وتضييقه ما امكن ، وهذا ينطبق على الاخص على الاطروحات الجامعية ، فالمؤرخ عليه ان يحسن استعمال المجهر قبل ان ينتقل الى المرصد .

وبعد تحديد الموضوع ينتقل الطالب اولا الى المصادر الثانوية اي الى الدراسات الحديثة والمعاصرة ، وذلك لتكوين فكرة عامة عن الموضوع . ويستحسن في هذا الصدد ان يقرأ الطالب بعض الكتب الهامة التي تعالج مواضيع مشابهة لموضوعه بدون ان تكون حول موضوعه مباشرة وذلك للاطلاع على مناهج مختلفة في معالجة موضوع مشابه . فاذا افترضنا المثال الوارد اعلاه ، اي ان الطالب قد اختار موضوع « نشوء القومية العربية » فمن المفيد ان يطلع على كتب مشهورة تعالج موضوع نشوء القومية الايطالية والالمانية مثلا وذلك لاستيحاء الطريقة التي يعالج فيها المؤرخون البارزون موضوع نشوء القوميات عموما .

وعندما يبدأ الموضوع بالاختمار في الذهن من خلال دراسة المصادر الثانوية يحين الوقت لوضع تصميم للبحث . وهذا التصميم ليس بالشيء الثابت لانه يتطور مع تطور البحث وسير الدراسة لكنه امر ضروري حتى يتسنى للطالب ان يتلمس طريقه عند الدخول الى المصادر الاولية ، اي المصادر والوثائق التي تنتمي الى نفس الفترة الزمنية التي هي موضوع البحث . وتصميم البحث هو في الواقع فهرس المحتويات ، هو الهيكل العظمي الذي تبنى عليه الاطروحة ، هو تقسيم اجزاء البحث بحسب اهمية كل جزء من هذه الاجزاء . لذا فان البحث المتزن يجب ان يكون متزنا لا في مضمونه فحسب بل وفي شكله ايضا . التصميم الجيد اذا يطال الكيف والكم معا فان شيطان النقد لا يرحم المؤرخ الذي يسمح لجزء من اجزاء الموضوع ان يطغى على الكل . فان كنا نكتب عن السلاجقة في الشام في مئة صفحة فلا يمكن لنا ان نكرس ثلاثين صفحة منها لتاريخ السلاجقة على وجه العموم . وان كنا نكتب

سيرة صلاح الدين الايوبي فلا يمكن ان نكرس بابا واحدا لحروبه مع الصليبيين وتسعة ابواب لحروبه مع امراء المسلمين الآخرين ، كما فعل احد المستشرقين في كتاب صدر حديثا .

وحين يكتمل التصميم استنادا الى دراسة الموضوع من مصادره الثانوية تأتي اخيرا مرحلة الولوج في المصادر الاولية ، بعد ان يكون الباحث قد هيأ نفسه لذلك . واذا كان موضوع البحث يقع في التاريخ العربي الوسيط ووصل الطالب الى ان يضع لائحة باسماء المؤرخين وكتبهم التي تهمه ، من المفيد بادىء ذي بدء ان يتعرف الى سيرة هؤلاء من خلال تراجمهم في كتب الطبقات كارشاد الاريب (المعروف بمعجم الادباء) لياقوت ووفيات الاعيان لابن خلكان للاطلاع على حياة المؤرخ واساتذته وتلاميذه ومحيطه وكتبه الاخرى والمنهج الذي اتبعه في الكتابة والى ما هنالك . ودراسة التأريخ والمؤرخين في الفترة المختارة هي في الغالب المدخل الافضل لفهم الفترة بشكل شامل وعميق كما ان العديد من الاطروحات التاريخية تعقد فصلها الاول لدراسة المصادر ، وهذا امر مستحب وضروري لتعميم الفائدة .

وهكذا يسير البحث عبر مراحل ثلاث : مرحلة المصادر الثانوية ثم مرحلة تصميم البحث ثم مرحلة المصادر الاولية . وتتلاشى المرحلة الاولى تدريجيا اما التصميم فانه يلازم البحث حتى النهاية متأرجحا في شكله وفي نسبة أجزائه بعضها الى بعض حسبما توحي به المصادر الاولية والى ان يكتمل البحث نهائيا . والاطروحة الجامعية الجيدة تكون في العادة نتاج تفاعل فكري بين المشرف والطالب فلا يجوز ان يفرض الاول موضوعا معينا على الثاني والعكس . كما ان دور المشرف ينحصر في توجيه الطالب نحو المصادر الثانوية والاولية ومن ثم في الاشراف على تصميم الاطروحة واتزانها ومنطقها ، اما المضمون فان الطالب هو المسؤول الاول والاخير عنه كما ان من المفترض ان يصبح في النهاية « خبيرا » في موضوع بحثه .

والان وقد اقتربنا من نهاية هذه الملاحظات حول التاريخ فقد يكون من المناسب ان نختتم بالكلام عن المصادر والهوامش في التأريخ . ان المصادر والهوامش تشكل الجانب التمحيصي (اذا صح اللفظ) من العمل التاريخي . فقد اعتاد بعض المؤرخين ، وانا منهم ، ان ينظروا في بادىء الامر الى الهوامش والمصادر عندما يقع بين ايديهم كتاب جديد . وليس في الامر غرابة لان المصادر والهوامش في العمل التاريخي تشبه اللمسات الاخيرة التي ننظر اليها اولا عندما نشتري سلعة ما . العديد منا ينظر اولا الى اللمسات الاخيرة ومن ثم ينظر الى السلعة ككل قبل ان يعطي رأيه النهائي فيها . لذا فان الكلام في موضوع الهوامش والمصادر هو من قبيل « اخيرا لا اخرا » . فربَّ عمل تاريخي جيد شوهته مصادره وهوامشه لان المؤلف ارسل به الى الطبع دون ان يكلف نفسه مشقة الانتباه الدقيق الى لمسات عمله الاخيرة ، وربَّ عمل تاريخي سيء غفرت له بعض ذنوبه المصادر والهوامش التي صاغها المؤرخ بدقة فافادنا على الاقل باسماء بعض ما قد غاب عنا من اسماء المصادر .

وفيما يختص بالمصادر الثانوية ، فان الطالب يستقيها في البدء من الاستاذ المشرف لكن كشاف المصادر في الكتب التاريخية الجيدة كثيرا ما يرشدنا الى مصادر اخرى ذات علاقة مباشرة او غير مباشرة بموضوع البحث . وحتى لا يضيّع الوقت في قراءة مصادر ثانوية لا قيمة لها ، على الطالب ان يحسن تقييم الكتاب الذي يقع بين يديه قبل ان يبدأ بقراءته ، وذلك بالقاء نظرة سريعة عليه في شكله ومضمونه : من المؤلف ؟ من الناشر ؟ ما تاريخ النشر ؟ هل فيه قائمة بالمصادر المستعملة ؟ هل فيه هوامش ؟ هل هو مفهرس جيدا ؟ هل له تصميم منطقي واضح من خلال دراسة فهرس محتوياته ؟ هل الاسلوب رصين وعلمي ام هو عاطفي متحيّز ؟ اما فيما يختص بالمصادر الاولية فمن الضروريّ الاعتماد على الطبعة الموثوقة عند الباحثين ، دون سواها ،

مخافة اضاعة الوقت في الاعتماد على طبعات غير علمية . ولا بد لكل طبعة علمية او تحقيق علمي من مقدمة يصف فيها المحقق المخطوطات التي اعتمدها ولا بد لها من هوامش توضح الاختلافات بين المخطوطات كما لا بد لها من فهارس للاعلام والأماكن والى ما هنالك .

هذه اذا بعض الاشارات التي قد تساعد على التمييز بين الصالح والطالح من المصادر . اما فيمايختص بالهوامش فعلى الطالب ان يحدد وظيفة الهامش بدقة . فالهوامش هي للاستشهاد او الايضاح او الاضافة وليست ابدا للتبجح او الحشو . والاستشهاد يكون اما بنص او برأي ، اما الايضاح والاضافة فنعني بهما تلك الامور الهامة التي لا مجال لايرادها في النص ولكنها قد تهم الباحثين في مواضيع لها صلة بالموضوع الاساسي . اما التواريخ المعروفة والحوادث المتواترة فلا حاجة للدلالة عليها في الهامش . ولا يوجد اي مقياس يحدد لنا بالضبط كمية الهوامش اللازمة فاذا اكثرنا من الاستشهاد بدت الاطروحة وكأنها فسيفساء من اراء الاخرين اما اذا كان الاستشهاد قليلا فان الاطروحة قد تبدو وكأنها معلقة في الهواء الطلق .

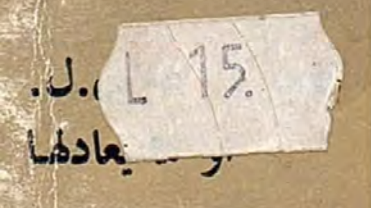
وبعد ، فهذا جملة ما حضرني حول اختيار البحث وتصميمه ومصادره . وعطفا على كلامنا السابق حول التاريخ الحضاري واهميته في الحضارة العربية الاسلامية ، فلذا ما يدعونا الى الرجاء ان يقترب اليوم الذي يتجه فيه المؤرخون العرب الى سواضيع تاريخية خارجية ، اي الى تواريخ اسيا وافريقيا واوروبا واميركا ، حتى يكتسب التأريخ العربي مجددا تلك الصبغة العالمية والتي يجب ان تواكب انفتاحه الحاضر .

٩٣٦ / ٨٢ / ٣٠٠٠

هذا الكتاب

□ ما الحاجة الى كتاب آخر عن التاريخ ؟ أليس الموجود وافراً وفائضاً عن المطلوب ؟

□ قد يكون ذلك صحيحاً ، وقد لا يكون . لكن الهدف الذي يتوخاه المؤلف من كتابه هذا هو تقديم تعريف للتاريخ يجمع ما بين النظرية والعمل ، لا الإحاطة بكل ما يتصل بالتاريخ من علوم ومسائل . لقد تبين له من خلال تجربته كمؤرخ أن حقل التاريخ النظري (أو ما يسمى بفلسفة التاريخ) ليس في الواقع مكتظاً ، لا في الغرب ولا في الوطن العربي ، بالقدر الذي يبدو عليه . أضف الى ذلك ان هنالك بعض الامور النظرية التي قد يُساهم المؤرخ العربي بالذات في جلاء غموضها من خلال ممارسته لكتابة التاريخ العربي ، ومنها ، مثلاً لا حصراً ، تاريخ الحضارات وتاريخ الفكر ومشكلة التراث ... الخ .



دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت